٢١٧

HARLEQUIN

روايات احلام

سيد الصقر

جينيفر تايلور

www.elromancia.com
مرمورية

سيد الصقر

كان الدكتور «نيال غيلسبي» رئيس القسم الذي تعمل فيه «سارا هاريس» جبلاً من جليد، لكن سارا أدركت متأخرة أنه يخفي تحت ذلك الثلج ناراً لاهبة! وصاح بها عقلها محذراً... الخطر... الخطر...

❖ هل أنت قادمة يا سارا؟

كانت الشمس تسطع بقوة، فمنعتها من رؤية تعابير وجهه، ولكن هذا لم يعد يهمها. إنها تعي ما رأته وسمعته، وأخافها هذا لأنها تجهل كيف عليها أن تتصرف.

فهل عليها أن تضع حداً وتسير مبتعدة دون أن تنظر إلى الوراء؟ أتدير ظهرها للخطر؟ اليس هذا الطريق الصواب؟

نعم، إنه هو. لكن من المؤسف ألا تستطيع أن تسلك هذا الطريق، وألا تجد حلاً آخر سوى القفز إلى النار... وتخاطر بالاحتراق!

جينيفر تيلور

تقيم في شمال غرب انكلترا مع زوجها «بيل» وابنها «مارك» وابنتها «فيكي». تكتب الروايات لـ «ميلز أند بونز» منذ سنوات طويلة، ولكن حين علمت بسلسلة الروايات العاطفية الطبية Medical Romances، أُخذت بها وقررت أن تكتب لها أيضاً!

إذا لم تكن تكتب وتقوم بأبحاث لكتابها الجديد، تحب «جينيفر تيلور» أن تقرأ وتسافر وتتنزه مع كلبها وتتسوق. تعتقد جينيفر أن الانحناء والتطاول أمام الرفوف يشكل رياضة ممتازة . . . وهو أفضل طبعاً من رياضة «الأيروبكس».

١ ـ في قلب النار

ـ وهذا يجعل المجموع مئة وتسعة وعشرين!

أعلنت الممرضة سارا هاريس ذلك وهي تدخل إلى غرفة الممرضين، وتتوجه مباشرة إلى لوحة الملاحظات حيث سجلت المجموع الجديد أمام رسمها وعلى فمها ابتسامة عريضة وأضافت: «السيدة (بيترز) توأم».

أجابت إيرني برينتس، القابلة الأكبر سناً في قسم التوليد، وهي تبتسم:

ـ هذه عادتك! كان يجب أن أعلم أنها ستلد إثنين. ما الذي تفعلينه لمريضاتك، يا سارا؟ ترشينهن! لقد فزت السنة الماضية في مباراة توليد أكبر عدد من الأطفال، ويبدو أنك ستفوزين بها هذه السنة أيضاً!

فقالت سارا ضاحكة وهي تضع الإبريق على النار لتحضر لنفسها فنجاناً من الشاي:

ـ أنت بالذات لا يحق لك أن تتكلمي بعد أن أنجبت إحدى مريضاتك ثلاثة توائم الأسبوع الماضي وإذا بك الآن تضنّين علي بهذه المنحة الصغيرة!

وألقت بنفسها على كرسي وهي تخلع حذاءها، متنهدة بارتياح، ثم أضافت:

ـ آه، ما أحسن هذا! لا أظن أن السيدة «بيترز» مرهقة بقدري أنا. كانت رائعة ونفذت كل ما طلبناه منها. لكن زوجها المسكين كان

مذعوراً جداً حتى ظننته سيموت ولهذا دفعناه إلى تنشق بعض الأوكسجين والهواء لتهدئة أعصابه.

ضحكت إيرني وهي تنهض واقفة:

ـ يتصرف الكثير من الآباء بهذا الشكل. انتظري حتى تري ما رأيته أنا من آباء ممددين على أرض غرفة الولادة.

وابتسمت متذكرة الأيام الخوالي، وتابعت تقول وهي تغسل فنجانها:

ـ حين بدأت عملي كقابلة، لم يكن مسموحاً للأب بحضور عملية ولادة زوجته. وأتذكر رئيسة الممرضات، في أول مستشفى عملت فيه، وهي تتذمر بحدة، لأن رجلاً مسكيناً تجرّأ وسأل إن كان بإمكانه أن يحضر ولادة زوجته. لقد تغيرت الأمور كثيراً منذ ذلك الحين والحمد لله.

فقالت سارا:

ـ هذا صحيح. فقد أصبح من النادر الآن ألا يحضر الزوج الولادة. أما زلت تفكّرين في التقاعد، يا إيرني؟ أواثقة أنت من أنك لن تندمي على ذلك؟ أما أنا فلا أتصور أنّ بإمكاني ترك كل هذا، فأنا أحب عملي جداً.

ـ أعرف، وهذا هو سبب تفوّقك فيه. على القابلة الماهرة أن تكون صبوراً وحازمة، وأنت تملكين هاتين الصفتين. وكل الأمهات لديك يشهدن بذلك، وبأنهن لا يعرفن كيف كنّ ليتصرّفن بدونك.

ابتسمت وهي تجفّف يديها ثم أضافت:

ـ كان شعوري نحو العمل مماثلاً لشعورك، يا سارا. لكنني الآن بحاجة إلى مزيد من أوقات الفراغ، فقد تقاعد «جاك»، وبات بإمكاننا تنفيذ كل ما وعدنا أنفسنا به.

تنهدت سارا:

ـ أفهم ذلك طبعاً. ولكن من المؤسف أن تتركينا مباشرة بعد تقاعد

الدكتور «هندرسون». وهكذا، ستتغير الأمور هنا عمّا كانت عليه.

ـ هذا صحيح. لقد سمعت أن «نيال جيلسبي»، الذي سيستلم القسم، رجل رائع. ولكن لا شك أن لديه أراءه الخاصة عن كيفية سير الأمور. وبما أن مصلحة الصحة قررت إغلاق قسم التوليد في «رويال» وجعل مستشفى «دالفرستون العام» المركز الوحيد لتعليم التوليد، فستتغير الأمور حتماً.

ـ أعلم هذا، وأظن أنه من الرائع الحصول أخيراً على كل المعدات التي نحن في أشدّ الحاجة إليها. أثير الكثير من اللغط حول موضوع إغلاق هذا القسم، لكن، بما أنه لا يفصل بين المستشفيين سوى عشرة أميال، كان بالإمكان الاستفادة من المعدات نسبياً.

ـ أشعر بأنك متحفظة حيال هذا الموضوع، على عكس ما تقولينه الآن.

ـ حسناً، نعم، نوعاً ما. كل ما في الأمر أنني لا أريد أن يحصل لهذا المكان ما حصل لكثير من أقسام الولادة الكبرى الأخرى. تتميز كلها بتقنية عالية ولكنها تفتقر للروح، فالولادة يجب أن تكون حَدَثاً رائعاً بالنسبة إلى المرأة التي يجب ألاّ تُرغم على نوع من الولادة لا تريده لأنه يلائم الممرضات أكثر.

سألتها إيرني مقطبة:

ـ ما الذي يجعلك تظنين أن هذا سيحدث هنا؟.

ـ آه، لعله مجرد غباء مني!

ونهضت سارا لتغسل فنجانها، وهي تقول:

ـ لقد أحببت كل دقيقة أمضيتها هنا، ولهذا لا أحتمل فكرة أنّ تتغير الأمور. كل ما أرجوه هو ألاّ يحاول هذا القادم الجديد فرض سلطته على المكان.. سمعت أنه يرفض أن تسير الأمور إلا حسب مشيئته. فلنأمل،

إذن، أن تنسجم آراؤه مع آرائنا.

ضحكت وهي تستدير، ولكن الابتسامة جمدت على شفتيها حين اشتبكت عيناها بعينين باردتين خضراوين كانتا تراقبانها عن الباب. تساءلت وقد انقطعت أنفاسها فجأة، عما إذا كان السبب اكتشافها بأن هناك من استمع إلى حديثهما.

شعرت إيرني بوجود خطب ما، فاستدارت بدورها وتملكتها الدهشة لرؤية القادم الجديد. لكن، قبل أن تنطق إحداهما بأيّ كلمة فُتح الباب على مصراعيه ودخلت «إيلين روبرتس» مديرة المستشفى، إلى الغرفة.

ـ آه! الأخت برينتس، أنا مسرورة لرؤيتك. فأنا أجول مع الدكتور جيلسبي في المستشفى لأعرّفه إلى أكبر عدد ممكن من الموظفين.

وابتسمت إيلين للرجل الذي تبعها إلى داخل الغرفة، أضافت: «الأخت برينتس» هي أقدم ممرضاتنا في قسم الولادة، «نيال». كم سنة أمضيت هنا، إيرني، عشرين؟.

أجابت إيرني وهي تمد يدها لمصافحته:

ـ إثنتان وعشرون، في الواقع. يشرفني التعرف إليك، يا دكتور جيلسبي.

ـ وأنت أيضاً، أخت برينتس. لقد سجلت رقماً قياسياً، فقلائل هم الذين يمضون هذا الوقت كله في الوظيفة.

كان صوته عميقاً، وقد زادت نبرته الاسكوتلندية الخفيفة لهجته الناعمة فتنة. شعرت سارا بقشعريرة تسري في كيانها حين سمعته للمرة الأولى، فأخذت نفساً عميقاً وهي تتساءل عن سبب تسارع خفقات قلبها المفاجيء هذا. لا بأس، لعل السبب هو الدهشة التي تملكتها حين رأته واقفاً هناك. ولكن هل هذا هو فعلاً سبب شعورها الغريب هذا؟

ـ ومنذ متى تعملين هنا، أيتها الأخت؟

أجفلت وهي تسمعه يخاطبها، وشعرت بالاحمرار يزحف إلى وجهها، ولمّا رفعت عينيها وجدت عينيه الباردتين مسمرتين عليها. وعندما حاولت أن تجيب عن هذا السؤال البسيط، شعرت بأن لسانها لا يطيعها، فقالت متلعثمة:

ـ ثلاث... ثلا.. ثلاث سنوات تقريباً.

ـ حسناً... وهل أنت مسرورة بالعمل هنا؟.

عقد ذراعيه وهو يتأملها، وهذا ما جعلها تشعر بأن معنى آخر خفياً يختبيء خلف هذا السؤال البريء ظاهراً.

سحبت نفساً عميقاً آخر وهي تحاول استجماع أفكارها، ولكنها وجدت صعوبة في ذلك. ما الذي جعلها تضطرب هكذا؟

ونظرت إليه بسرعة علّها تجد فيه ما يفسّر ذلك. كان طويل القامة، ذا جسد متناسق في بذلته الرمادية الأنيقة وقميصه الناصع البياض، وقد سرّح شعره البني القاتم إلى الخلف، بأناقة، مما أبرز ملامح وجهه القوية، بوجنتيه العاليتين وذقنه المربّع، وأنفه الذي شابه تقوّس خفيف للغاية.

قطّبت سارا جبينها حين لم تر فيه سبباً لردة فعلها الغريبة هذه. كان وجهه، في الواقع، أنيق القسمات، وهو وجه يعتبره البعض وسيماً، إنما يعلوه نوع من الشحوب وكأن صاحبه لا يمضي في الهواء الطلق وقتاً كافياً.

كانت عيناه أجمل ما في ملامحه، فهما بخضرة البحر، وتبدوان شفافتين للوهلة الأولى. لكنها ما لبثت أن أدركت، وهي تراهما عن كثب، أنه يستحيل قراءة أفكاره من خلالهما.

وأخذت تفكر في أنه رجل يجيد إخفاء مشاعره، رجل يبدو وكأنه ينظر إلى العالم بانفتاح لكنه لا يكشف عما في نفسه، فتساءلت عما يخاف أن يكشفه أمام الناس. وأدركت فجأة أنه لا زال ينتظر جوابها

حين رأت حاجبيه يرتفعان، فتمتمت وقد أربكها تصرفها هذا:

— ـ آه! نعم، مسرورة جداً، شكراً يا دكتور جيلسبي. العمل في مستشفى «دالقرستون العام» يعجبني كثيراً.

ـ دعينا نأمل إذن ألا تجدي صعوبة في التكيف مع أي تغيير أراه ضرورياً.

وألقت عيناه الباردتان عليها نظرة أخيرة، ثم التفت إلى «إيلين روبرتس» قائلاً: «أظنك ذكرت شيئاً عن قسم (الولادات قبل أوانها)».

ـ آه، نعم!

واستطاعت إيلين أن تبتسم رغم ما بدا عليها من عدم التركيز، إلا أن حالتها لا يمكن أن تقارن بحال سارا.

قالت سارا بغيظ، بعد خروج الزائرين:

— ـ أظنه أوقفني عند حدي، إليس كذلك؟

قالت إيرني مكشرة:

ـ على ما يبدو. أرجو ألاّ تكون هذه إشارة إلى كيفية سير الأمور هنا في المستقبل. وإذا صح ذلك، فأنا مسرورة لرحيلي.

— ـ أنا لا ألومك.

وتنهدت ثم أضافت:

— ـ يبدو أن عليّ أن أتنبّه لكلامي من الآن فصاعداً. أليس كذلك؟

انفجرت إيرني ضاحكة، وقالت:

ـ هذا رائع! متى فكّرت مرتين قبل أن تفصحي عن آرائك يا سارا هاريس؟

فسألتها سارا ضاحكة بالرغم من انزعاجها من تعنيف الدكتور جيلسبي لها، بذلك الأسلوب الجاف:

— ـ هل تعنين أنني ثرثارة أو ما شابه؟

هل أثّر فيها لأنه كلّمها دون أن يبدو على وجهه أي شعور؟ لم تكن واثقة من ذلك.

ردّت إيرني وهي تتوجه نحو الباب:

ـ أو ما شابه هو التعبير الملائم. سأذهب لأطمئن على السيدة وولترز. أراك فيما بعد، أظنك ستحضرين حفلة تقاعد الدكتور هندرسون الليلة. أليس كذلك؟

— ـ هذا صحيح. أراك هناك.

وأخذت سارا تتأمل إيرين وهي خارجة.

إنها سعيدة منذ انتقلت إلى هذه المدينة الصغيرة في منطقة يوركشاير، وربما عليها أن تلجم لسانها بما أن رئيس القسم الجديد أوضح أنه لا يرحب بأي معارضة. والأمر لا يستحق عناء أن تغامر بوظيفتها...

انتصبت فجأة في وقفتها، وتأملت نفسها في المرآة. ثم نفضت شعرها الحريري الأشقر إلى الخلف.. غير أن ملامحها الجميلة الجريئة بدت عابسة على غير عادتها، ولمع بريق في عينيها العسليتين.

قد لا يفيدها ذلك، لكن إذا ما رأت أيّ خطأ، لن تسكت.. فإن راحة مريضاتها تأتي في المقام الأول عندها.. وما عدا ذلك، ومن بينهم الدكتور الثلجي جيلسبي... يحل في المرتبة الثانية أو ما دون!

* * *

— ـ هذا حسن جداً، يا كارين. عنق الرحم متمدد، ولن يطول الأمر الآن.

مسحت سارا العرق عن وجه المرأة الشابة ثم ابتسمت لها مشجعة.

ـ لا أظن أبداً أن هذا الطفل سيأتي...

عضت كارين على شفتيها عندما انتابها طلق آخر. انحنت سارا التي غمرتها موجة من السرور عندما ظهر رأس المولود.. أخذت تتفحص

برفق ما إذا كان حبل السرّة ملتف على عنق الطفل، ثم قالت بهدوء تخاطب «هيلين كورت» القابلة المتدربة التي كانت تساعدها:

ـ كل شيء جيد. رأس الطفل ينطلق إلى المهبل، ولهذا تحوّل وجهه إلى الأسفل. عندما يبدو الرأس انتبهي إلى أن حبل السرة ليس في الطريق، وهذا أهم شيء.

أومأت هيلين برأسها وهي تتلمس برفق عنق الطفل كما فعلت سارا.

ـ فهمت. ولكن ماذا سيحصل بعد ذلك؟

ابتسمت سارا وهي تنظر إلى كارين، وقالت:

ـ سنترك الأم تقوم بعملها الآن، تذكري ما تعلمته في صف ما قبل الولادة، يا كارين. انتظري حتى تشعري بالطلق قبل أن تدفعي. فبهذه الطريقة لا ترهقين نفسك.

أومأت كارين المتعبة، ثم ألقت نظرة على زوجها وحاولت أن تبتسم، وهي تطمئنه:

ـ لن يطول الأمر، يا دايفيد.

ـ إنك تبلين حسناً!! لا أصدق ذلك...

وأجفل دايفيد عندما تشبثت كارين بيده مع بدء طلق آخر.

انحنت سارا لتساعد الطفل وهو يقطع المرحلة النهائية من رحلته، شارحة لهيلين سير الأمور:

ـ انظري كيف أدار الطفل رأسه مجدداً وذلك انسجاماً مع كتفيه. سأميل الرأس قليلاً نحو الأسفل مع الكتفين، مما يجعل أقرب كتف تخرج أولاً... آه، ها هو ذا قادم.

رفعت بمهارة الجسد الصغير الذي انزلق إلى الخارج وضحكت حين صرخ الطفل على الفور باكياً، وقد تغضن وجهه انزعاجاً من دفعه إلى

العالم الخارجي بهذه السرعة.

مدّدت الطفل برفق على بطن الأم، وابتسمت وهي ترى الفرح يرتسم على وجهي الزوجين الشابين:

ـ إنها بنت. تهاني لكليكما.

ـ بنت؟ لكنني.. لكنني ظننت أنه سيكون ولداً!

وتملكت الأب الرهبة، وابتلع ريقه وهو ينظر إلى تلك الكتلة البشرية التي ستغيّر حياته كلياً.

ضحكت كارين من بين دموعها واخذت تمرّر يدها بحنان على رأس الطفلة اللزج المبتل.

ـ طلبت منك ألا تستبق الأحداث وتشتري حذاء الفوتبول ذاك.

ضحك الجميع. ثم أكملت سارا مهمتها ففحصت الأم بعناية.

ثم جذبت بهدوء هيلين جانباً لتمنح الوالدين الجديدين فرصة تمضية بعض الوقت مع وليدتهما وحدهما، قائلة لها:

ـ سننجز ما تبقى من العمل، خلال لحظات. فعلينا أن نزن الطفل ونرى طوله.. ثم سنفحص ما إذا كان وركاه في غير موضعهما. تعرفين اختبار «أبغار» إليس كذلك؟

أومات هيلين وقالت:

ـ نعم. إنه فحص لتقويم حالة جسد الطفل. أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح. ويتم ذلك عبر مراقبة تنفس الطفل، ولون الجلد، وحركة العضلات والحيوية عموماً، ثم نضع نقاطاً لكل هذا وأعلى نقطة هي العشرة. لكن إذا ما فاق المعدل السبعة تكون النتيجة جيدة. ونقوم بهذا الفحص فور ولادة الطفل.

التفتت عندما فتح الباب فجأة، ودهشت لرؤية الدكتور جيلسبي يدخل غرفة التوليد. كان يرتدي ثوباً أخضر معقماً فيما تدلت السماعة

من عنقه. أومأ إلى الزوجين محيياً، ثم تقدم نحوها، قائلاً:

ـ هل كل شيء على ما يرام، يا أخت هاريس؟

ـ بأحسن حال، شكراً يا دكتور.

وحاولت سارا أن تقلّد لهجته، وإن لم يكن سهلاً أن تحقن صوتها بالبرودة نفسها كما يفعل «نيال جيلسبي»!

دنت القابلة المتمرنة هيلين من رئيس قسم التوليد الجديد، وهي تشعر بانزعاج غريب، ثم شرحت بهدوء للطالبة كيف تعدّ البطاقة التي تدوّن عليها هوية الطفل. وانتظر الدكتور جيلسبي حتى أنهت سارا هذه الإجراءات كلها، وقد بدا الجمود البالغ على وجهه، وهو يستمع إليها. شعرت بالارتباك لوجوده هناك، يستمع إلى ما تقوله وربما ينتقده، لكنها حاولت ألا تظهر ارتباكها هذا.

وبعد أن تأكدت من إدراك هيلين أهمية تلك البطاقة، عادت والتفتت إلى الدكتور جيلبسي، متسائلة عما يريده! وسألته بأدب:

ـ أما زلت تحاول التعوّد على القسم، يا دكتور؟

ـ آه، أظن أنه أصبح لدي فكرة جيدة عن بعض الأمور، شكراً.

وابتسم لها ابتسامة باهتة قبل أن يلتفت إلى الزوجين اللذين كانا غافلين عن كل شيء ما عدا طفلتهما:

ـ هل أجريت للمولود الفحوصات اللازمة كلها؟

لم يكن لسؤاله أيّ معنى، لأنه كان يرى بوضوح أن الفحص لم يُنجز بعد. وسرعان ما اتخذت سارا موقفاً دفاعياً رغم أنها لم تكن تدرك سبب ذلك، إذ لم تخطىء بشيء.

قالت:

ـ لم نجدها بعد. فأنا أحب أن أعطي الوالدين لحظات يمضيانها وحدهما مع الطفل قبل أن أحمله بعيداً.

ـ وهل هذا هو الإجراء المعتاد؟

كانت لهجته محايدة تماماً، لهذا لم يكن هناك مبرر للغيظ المفاجىء الذي تملكها. نظرت إليه مباشرة، فشعرت برعشة تسري في جسمها عندما التقت عيناها بتلك العينين الباردتين الخضراوين الغامضتين.

ـ إنه إجراء اعتمده دوماً عندما تكون الولادة سهلة، دكتور. فأنا أجد أن الوالدين يقدران أهمية هذه اللحظات أكثر من غيرها. وهي فرصة ليعتادوا على أن طفلهما قد أصبح حقيقة واقعة أخيراً.

ـ إنها لمسة حنان، يا أخت. على أيّ حال، أنا أعتبر المجازفة بصحة الأم والطفل عمل أحمق وغير ضروري. تأكدي، في المستقبل، من تنفيذ كل شيء بدقة، ومن فحص الأم والطفل معاً فوراً لتلافي أيّ تعقيدات قد تطرأ.

وارتدّ على عقبيه مغادراً لكن غضب سارا دفعها إلى مد يدها لتمنعه وهي تقول:

ـ أؤكد لك أنه لم يكن هناك مجازفة بصحة الأم أو الطفل.

ـ ربما ليس هناك أيّ شيء ظاهر.

وابتسم لها ابتسامة جليدية فيما التفت بنظرة تحمل معنى خفياً إلى يدها الممسكة بذراعه.

رفعت يدها بارتباك وقد احمر وجهها بعد أن أدركت ما فعلت، وازداد احمرار وجهها تأثراً وخجلاً، لأنها لم تستطع تجنب ذلك. فقد كان شعورها بالغضب أو الإثارة ينعكس على وجهها دوماً، مما يشكّل لعنة حياتها، وزادت الأمور سوءاً حين أدركت أنّ هذا فضح شعورها نحو «نيال جيلسبي».

تنفست بسرعة، وحاولت أن تستعيد هدوء صوتها وملامحها لأنها لم تشأ أن يلاحظ الاستياء الذي سببه لها:

ـ أتصور أنني ولّدت عدداً من الأمهات يجعلني قادرة على معرفة ما إذا كانت الأم أو الطفل في خطر يا دكتور.

ـ ربما، يا أخت. لكنني، في المستقبل أفضّل أن أراك تتبعين الإجراءات حرفياً.

وانخفض صوته، فبدت نبرته وكأنها مشبعة بالألم حين أضاف:

ـ هناك دوماً أشياء لا نتوقعها. وهذا ما يجب أن نتنبّه له وإلا وقعنا في أخطاء نحن في غنى عنها.

واستدار ليخرج إلا أنه توقف والتفت إليها: «بالمناسبة، ما نوعه؟».

ـ ما نوعه...؟

لم تفهم ما عناه. وبدا نيال جيلسبي جامداً وشارداً كما لم يبدُ من قبل.

ـ أعني الطفل. هل هو ذكر أم أنثى؟

ـ آه! إنها أنثى.

وألقت نظرة على اللوح الأبيض حيث كتبت الأسماء التي اختارها الأبوان، ثم أضافت:

ـ أظنها ستحمل اسم «هولي لويز».

ـ أبلغي الأبوين تهاني.

ولم يضف أيّ كلمة وهو يغلق خلفه باب غرفة الولادة بهدوء.

أخذت سارا تحدق في الباب للحظات قبل أن تناديها كارين، فتوجهت إلى السرير وأخذت تجيب عن أسئلة الأم. وفيما راحت تشرح لها بعض الأمور، كان ذهنها يركز جزئياً على ما كانت تقوله.

أتراها تخيلت ذلك؟ أخذت تتساءل وهي تحمل الطفلة لتزنها، إن كانت فعلاً قد سمعت نبرة الألم تلك في صوت نيال جيلسبي منذ لحظات؟

لم تستطع أن تتأكد وكانت تلك مشكلتها. لو تمكّنت من نبذ هذه الفكرة واعتبرتها مجرد تخيلات، لانتهى الأمر. وأدركت أن فضولها قد أثير كلياً. إنما تشك في أن يرضى الدكتور جيلسبي باهتمامها هذا..

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ وهم أم خيال؟

ـ سارا . . تعالي إلى هنا . لقد حجزنا لك مقعداً .

ـ شكراً . ظننت أنني لن أصل أبداً! فاتني الباص، لهذا اضطررت للعودة إلى بيتي والاتصال بسيارة أجرة .

اندست سارا قرب إيرين ثم ابتسمت للآخرين . كانت مجموعة كبيرة من الموظفين قد تجمعت في المقهى بجانب المستشفى لاحتساء العصير قبل التوجه إلى حفلة تقاعد الدكتور هندرسون التي تقام في فندق قريب . ورأت هناك ممرضات من مختلف الأقسام ومن قسم الولادة أيضاً .

ـ آه، لم أكد أعرفكن . أنتن رائعات من دون ثياب التمريض .

ضحك الجميع، ثم رفعت هيلين كأسها، وقالت :

ـ ماذا لو شربنا نخب أول ولادة أحضرها، نخب الطفلة هولي لويز .

ـ هولي . . لويز!

أخذ الجميع يردد هذا الاسم . والتفتت سارا حولها عندما دس شخص ما كوباً من العصير في يدها .

ـ هاك . . خذي هذا لتبلي شعر الطفلة .

ـ شكراً يا مايك .

وابتسمت سارا لمايك داوسن الذي عُيّن حديثاً كطبيب متمرن في قسم الجراحة . أخذت جرعة من شرابها ثم رفعت صوتها ليعلو الضجة، وسألته :

ـ ظننتك في العمل الليلة؟

ـ قررت أن أحضر إلى هنا أثناء فترة استراحتي، لأرى ما استقر عليه رأيك بالنسبة إلى مساء الغد . أتودين مشاهدة الفيلم الجديد الذي يعرض في سينما ريتز؟

ـ بكل تأكيد .

ولم تفتها لهفة مايك وهو يرتّب الأمور ليصطحبها في مساء اليوم التالي . وكان عليه أن يغادر بعد ذلك، وراح يضحك حين رأى الموظفين يغيظونه ويمازحونه لاضطراره إلى العمل فيما هم يستمتعون بوقتهم . لوحّت له بيدها عندما وصل إلى الباب، وهي تتنهد في داخلها متسائلة عما إذا كانت علاقته بها قد تخطت الحدّ نوعاً ما .

همست إيرين، وهي ترمقها بنظرة تحمل معنى مبطناً :

ـ كأنني أرى دلائل الحب . أتراها أجراس الزفاف التي أسمعها من بعيد؟

فضحكت سارا، وأجابت :

ـ أشك في ذلك . مشكلتك، يا إيرين بريتنس، أنك شاعرية لا أمل في شفائك . هل يعود السبب إلى أنك أمضيت ثلاثين عاماً في نعيم الزواج، حتى بتّ تودين رؤية الجميع يسير على الطريق نفسه .

هزت إيرين كتفيها دون أن تهتم بتعليق سارا، وقالت :

ـ لا يمكنني إنكار ذلك . ومايك فتى جيد، يا سارا، ومن الواضح أنه يميل إليك .

ـ همم . . . ربما . على أيّ حال، رقصة التانغو يلزمها شخصان، كما يقولون .

فتنهدت إيرين بأسف، وسألتها :

ـ أتعنين أنك لا تهتمين لأمره بالطريقة ذاتها؟ من المؤسف يا سارا

أنك صعبة الإرضاء، وفي هذه الحالة، لن تعثري أبداً على الرجل الكامل والمناسب.

ـ إذن، سيكون عليّ أن أبقى عزباء، أليس كذلك؟

وضحكت رغم أنها كانت تعلم أن في كلام إيرين شيئاً من الحقيقة. فهي صعبة الإرضاء . . نعم لقد خرجت مع عدد من الشبان، بمن فيهم مايك، لكنها لم تجد بينهم من رغبت في قضاء بقية حياتها معه. ولم يكن هذا الأمر ليقلقها لأنها كانت واثقة من أنها ستجد يوماً ما ذلك الشخص الذي يملأ حياتها.

جرعت من شرابها ثم حاولت أن تتصوره. هل سيكون أسمر أم أشقر؟ طويلاً أم قصيراً؟

وأخذت الصورة المبهمة، التي كانت تتشكّل في خيالها، تتضح، فسعلت لأنها غصت بشرابها، وفجأة. . لم تعد ترى سوى عينين خضراوين، عينين بخضرة البحر . . . تحت حاجبين سوداوين، تحدقان فيها.

ـ هل أنت مستعدة؟

نبهتها إيرين إلى أنهم مستعدون للانتقال إلى مكان الحفلة، فأسدلت سارا ستاراً على الصورة التي شغلت ذهنها، ووضعت كوبها جانباً. لا بد من وجود سبب جعل صورة نيال جيلسبي تتراءى لها في هذه اللحظة بالذات، ولا بد أن اللوم يقع على إرهاقها الذي جعل الطبيب البارد كالثلج يبدو في زي الرجل الكامل:

ـ أريد أن أشكركم جميعاً من كل قلبي على هذه الهدية الرائعة.

وابتسم الدكتور هندرسون وهو يرفع بيده عدّة صيد السمك التي أهداه إياها الموظفون، ثم أضاف:

ـ وكلما استعملتها سأتذكركم.

صفق الجميع عندما ساعد بعضهم الطبيب المسنّ على النزول عن الكرسي الذي اتخذه منبراً. ونظر إلى سارا بأسف وهو يتناول كأس مياه معدنية، ويقول:

ـ لم أدرك من قبل صعوبة اتباع نصائح الطبيب. لكن ميغ ستشنقني إذا ما خالفتها وأكثرت من الأكل.

فضحكت سارا، وأجابت:

ـ هذا لأنها تفكر في مصلحتك، يا دكتور.

فتنهد، وقال:

ـ أعرف، أعرف. وسأكون عاقلاً، يا سارا. تلك النوبة القلبية التي أصابتني كانت تحذيراً بأنّ عليّ أن أحترس من الآن فصاعداً.

قطبت سارا جبينها عندما استعمل الرجل المسن التعابير التي استخدمها نيال جيلسبي عصر هذا اليوم. ونظرت حولها فإذا بها تراه في الناحية الأخيرة من القاعة. واستغربت مثل هذا التوارد في الأفكار، فكلما فكرت فيه أثناء السهرة، كانت تراه على مرمى نظرها.

نظر حوله فجأة ثم قطب جبينه عندما لاحظ أنها تحدق فيه. وشعرت هي بالاحمرار يزحف إلى وجهها، فأشاحته وهي تشعر بالارتباك لأنه تنبّه إلى أنها تحدق فيه بهذا الشكل. وأرغمت نفسها على التركيز على حديث الدكتور هندرسون عن خططه لقضاء عطلته في صيد السمك في اسكوتلندا، ومع ذلك كانت تشعر بنظرات تخترق ظهرها بشكل غريب . . .

ـ يمكنني أن أنصحك بأماكن جيدة عدة لتجرّب فيها عدة الصيد تلك يا ريشارد.

أجفلت متوترة حين ميّزت ذلك الصوت العميق الذي سمعته خلفها. واهتزت يدها فأراقت العصير على يدها، ثم عاد الإحمرار ليغزو

وجهها وهي ترى نيال جيلسبي ينظر إليها. التفتت حولها بحثاً عن طاولة تضع كوبها عليها، ثم قفزت مجفلة مرة أخرى عندما أخذته يد ضخمة من قبضتها.

ـ اسمحي لي أيتها الممرضة هاريس.

وابتسم نيال جيلسبي ببرودة وهي تتمتم شاكرة. فتحت حقيبتها بسرعة لتبحث فيها عن منديل ورقي، شاعرة بنظراته تراقبها وبتلك الابتسامة الباردة نفسها ترتسم على وجهه.

تملّكها ارتباك بالغ وهي ترى نفسها هدفاً لعينيه الثاقبتين، وهذا ما جعلها تنثر نصف محتويات حقيبتها على الأرض وهي تنبشها بأصابع عصبية... قلما أحمر شفاه، قرطان وحفنة من النقود المعدنية تبعثرت على الأرض وانتهت تحت منضدة قريبة.

التهب وجه سارا خجلاً وهي تجلس القرفصاء لتجمع أغراضها. وأجفلت فجأة، عندما بدا وجهه قبالتها، وشعرت بقلبها يخفق بجنون ويمنعها من التفكير في ما قد تقوله، وتركت نيال جيلسبي ينقذ الموقف، فقام بذلك على طريقته الخاصة وبلهجته الجافة الجامدة:

ـ أظن أنّ أحد قلمي أحمر الشفاه تدحرج حتى ذلك الكرسي هناك... آه، أنا أراه الآن.

استعاد أحمر الشفاه ثم وقف. أغمضت سارا عينيها وراحت تعدّ حتى العشرة، آملة أن تستعيد اتزانها، وإن لم يكن بشكل كامل! وفجأة لم تعد ترى سوى تينك العينين الخضراوين اللتين تحدقان فيها من الجانب الآخر للمنضدة. وذكّرها هذا الموقف بما سبق وحدث لها في المقهى. وكيف صوّر لها التعب نيال جيلسبي كرجل أحلامها...

كبحت ضحكة عصبية وهي تنهض واقفة لتحافظ على ما أمكن من كبريائها في مثل هذه الظروف. يجب أن تستريح، فلا أحد يعلم أيّ

تخيّلات أخرى قد يصورها لها ذهنها.

ـ ها هوذا.

مدّ نيال جيلسبي إليها يده التي تحمل أحمر الشفاه. فأخذته سارا منه وهي تتمتم بالشكر، وحاولت أن تتجاهل الرعشة التي سرت في كيانها عندما احتكت أناملها براحته العريضة. ألقت بأحمر الشفاه في حقيبتها، ثم رسمت ابتسامة على شفتيها وجاهدت في سبيل تجاهله، لكن الأمر كان أشبه بمن يحاول تجاهل الشمس المشرقة.

كانت تشعر بحرارة جسمه من خلال قماش ثوبها الأخضر الرقيق. فاقشعر جسمها، وكبتت بصعوبة شهقة كادت تفلت منها حين أدركت تأثيره في أحاسيسها. أذهلها اكتشافها وصدمها وأفزعها. ماذا جرى لها؟ ولِمَ تضطرب بهذا الشكل حين يقترب هذا الرجل منها؟ اندفعت بالكلام، حتى لا تمنح نفسها فرصة للتفكير في الأمر، وقالت:

ـ هل تمارس هواية صيد السمك، يا دكتور جيلسبي؟

ـ كنت أمارسها.

وابتسم ابتسامة أخرى باردة، لكن خيل إليها أنها ليست بالبرودة التي اعتادت أن تراها.. بدا وكأن شيئاً من التوتر يحيط بفمه، ويسيطر على وقفته إذ تركزت نظراته على بقعة فوق رأسها. ولكم شعرت بالراحة عندما استلم الدكتور هندرسون دفة الحديث:

ـ من الصعب أن نجد وقتاً للهوايات، أليس كذلك يا نيال؟ فمهمتنا تتطلب الكثير من الوقت. بحيث يصبح كل شيء آخر ثانوياً.

وتنهد الدكتور هندرسون بأسى ثم أكمل:

ـ أتمنى الآن لو أقدر على جعل حياتي أكثر توازناً، فلا يصبح التقاعد بنظري مثبطاً للهمة بهذا الشكل. إذ لا فائدة من البكاء على الماضي، بل عليّ أن أتطلع إلى المستقبل. وإذا لم أعد إلى البيت حالاً، فستأتي ماغ

للبحث عني.

والتفت إلى سارا باسماً، وهو يقول:

ـ أعتقد أنك واجهت صعوبة في وصولك إلى هنا الليلة، فهل تشاركينني سيارة الأجرة؟ يمكنني أن أقلك في طريقي إلى بيتي.

ـ آه، نعم! أرجوك، إذا لم يكن في ذلك إزعاج لك.

هبت واقفة، لأن هذا الأمر عذر جيد لمغادرة الحفلة، ولأنه سيوفر عليها أجرة سيارة الاجرة، وتابعت تقول:

ـ سأعلم الآخرين بأنني مغادرة، ثم أقابلك عند الباب يا دكتور هندرسون.

وهرعت إلى حيث إيرين لتخبرها بذلك، فحاول بعضهم اقناعها بالبقاء لكنها تذرّعت بالتعب. وأخذت تفكر، وهي تغادر القاعة في أن ما قالته ليس عذراً مختلقاً، على أيّ حال فقد كان يومها متعباً في المستشفى، فعدا عن ولادة التوأم وهولي لويز، ساعدت في ثلاث ولادات أخرى.

ولعل ذلك يفسر الأشياء الغريبة الأخرى التي حدثت معها هذه الليلة. وراحت تفكر بردة فعلها عندما اقترب نيال جيلسبي منها منذ دقائق مثلاً.. لقد كان جهازها العصبي متعباً لذا ليس من المستغرب أن تظهر دلائل ذلك في تصرفاتها؟

سارت نحو ردهة الفندق وقد سرّها هذا التفسير الذي بررت به مشاعرها تجاه نيال. لكنها لم تجد أثراً للدكتور هندرسون. توجهت نحو المدخل الأمامي، متسائلة عما إذا كان عليها أن توقف سيارة أجرة إذا ما رأت واحدة. لكن لم يكن في المدينة سيارات كثيرة، خصوصاً في مثل هذه الساعة من الليل. لهذا من الحماقة أن تترك السيارة تمرّ لتنتظر أخرى قد لا تأتي إلا بعد وقت طويل.

نزلت إلى الشارع فارتجفت قليلاً عندما لفح هواء الليل ذراعيها العاريتين. حين خرجت، كان الطقس دافئاً فلم تشأ أن تزعج نفسها بحمل معطفها، لكنها تمنت الآن، وهي تشعر ببرودة الهواء، لو أحضرت معها سترة.

ـ ستموتين برداً إذا ما وقفت هناك بهذا الشكل. تعالي معي.

التفتت بسرعة واتسعت عيناها دهشة حين رأت نيال جيلسبي خلفها. ابتسم ابتسامة باردة وأشار برأسه إلى سيارة مركونة في الجهة المقابلة من الشارع وأضاف:

ـ لقد قلت لريتشارد إني سأقلكما معي، فلا داعي للوقوف هنا بانتظار سيارة أجرة..

ـ آه!، لكن لا يمكنني... أعني أن هذا ليس ضرورياً...

كبت نفساً عميقاً لتسيطر على خفقات قلبها المتسارعة، وأكملت:

ـ ما أريد أن أقوله هو أنك لست مضطراً لتقلني، يا دكتور جيلسبي. سأستقل سيارة أجرة.

استدارت لتبتعد ثم توقفت عندما سمعته يقول برقة:

ـ سارا أنا لا أعض الناس، لكنك على ما يبدو تظنين العكس.

ـ ماذا؟

وحملقت مذهولة، متسائلة عما إذا تخيّلت ذلك الهزل الجاف في صوته. مزاح، ونيال جيلسبي؟ أبداً، فهذان أمران متناقضان.

وضحك أرق ضحكة يمكن تصورها.. ضحكة جعلت سارا تغرق في مشاعر من الدفء والحنان.

ـ قلت إنني لا أعض. فهل ستثقين بكلمتي بهذا الشأن؟ أم عليّ أن أقدّم شهادة خطية بذلك؟

ـ أنا...

وضحكت ضحكة مخنوقة، وتحركت فيها روح الفكاهة بشكل مفاجيء، فأضافت، وهي تنظر إلى السماء:

ـ آه، لا أقبل بأقل من شهادة خطية! أعني لا يمكن لفتاة أن تمنح الثقة الكاملة لأحد، خاصة في ليلة كهذه.

تبع نيال نظراتها ثم ضحك، وقال:

ـ هممم... فهمت ما تعنينه. القمر بدر هذه الليلة، أليس كذلك؟ ومع ذلك، أنا واثق من أنك مستعدة لأي طارىء، أيتها الممرضة هاريس. وأتصور، مع كل ما استطعت حشره في حقيبة يدك، أنك تحملين معك الرصاصة الفضية التي تستخدم للقضاء على الإنسان الذئب، أليس كذلك؟ عليّ أن أعترف بأن معلوماتي في هذا المجال محدودة.

ـ آه، نسيت أن أحضرها معي الليلة!

وراحت تتساءل عما إذا كانا فعلاً يتبادلان مثل هذا الحديث. فلو قال لها أحد، منذ نصف ساعة خلت، أن مثل هذا الحوار سيدور بينهما، لسخرت منه.

قرصت نفسها لتتأكد من أنها لا تحلم. لكن نيال جيلسبي ما زال واقفاً هناك وعلى فمه الجميل ابتسامة باهتة.

سحبت نفساً عميقاً وهي تتساءل متى أدركت بالضبط أن فمه جميل، ثم قررت على عجل أنها لا تريد جواباً عن هذا السؤال! ولكم شعرت بالراحة عندما خرج الدكتور هندرسون، محاطاً بمعظم العاملين في قسم التوليد الذين تجمعوا لوداعه. نزل الدرجات نحوهما ثم ابتسم لسارا.

ـ هل قال لك نيال إنه عرض علينا أن يقلّك معه يا عزيزتي؟

لم ينتظر جوابها، واستدار ليلوّح بيده للمرة الأخيرة لمودعيه الذين هتفوا اسمه مجيبين. صعدت سارا بسرعة إلى مقعد السيارة الخلفي بعد أن

فتح نيال الأبواب، وحاولت أن تتجاهل النظرات التي لاحقتها. لم تكن بحاجة إلى النظر إليهم لتعلم أنها ستضطر غداً إلى تقديم الكثير من الإيضاحات.

* * *

ـ إذن دعوته إلى منزلك لتناول القهوة، يا سارا؟ وكم من الوقت بقي عندك؟

ـ أنا لم أدعه للدخول. هل هذا يجيب عن سؤالك؟

تنهدت سارا وهي تتجه نحو الباب ثم أضافت:

ـ أنا في غرفة الاستقبال إذا أرادني أحد.

ـ آه، لا تقلقي! إذا جاء نيال بحثاً عنك، فسنخبره أين يجدك.

وانفجرت «سالي غرين»، إحدى زميلات سارا، بالضحك، فتجاهلتها هذه الأخيرة وتركت غرفة الممرضات. لم تعد تحتمل.. فمنذ جاءت إلى العمل هذا الصباح وهن يمازحنها بشأن هذا الموضوع.

كان خبر توصيل نيال جيلسبي لها إلى بيتها قد انتشر بسرعة في القسم وفي كل أنحاء المستشفى على الأرجح. وأراد الجميع أن يعرف ما حدث. ومع ذلك، عندما حاولت أن تخبرهم، لم يصدّقوها. وتعرف أنها مهما كررت لهم الأمر لما صدقوها.

ابتسمت سارا بجفاء وهي تفكر في الليلة الماضية. لقد استغرق ركنه للسيارة ونزوله ليفتح لها الباب، ستين ثانية كاملة. وقد دهشت نوعاً ما لهذا التصرف المهذب الذي يتجاهله معظم الرجال في هذه الأيام. لكن نيال خرج من السيارة وفتح لها الباب، كما أخذ بيدها ليساعدها على النزول.

وارتجفت حين تذكرت دفء أصابعه وقوتها. وكانت تشعر بلمسته تلك، طوال استعدادها للنوم، حتى أخذت في النهاية تحدق في يدها عسى

أن تجد ما يثبت جسدياً أنه لمسها.

ولم تجد دليلاً بالطبع، بل ضحكت لحماقتها وهي تدس نفسها في فراشها وتطفىء النور. ولم تكن هذه التصرفات سوى دلالة أخرى على الإرهاق الذي كانت تشعر به بالأمس.

نامت وهي تحتضن هذه الأفكار، سعيدة بأنها عثرت على هذا التفسير البسيط لكل ما حدث. ولكن حين وصلت إلى مكتب الاستقبال ورأت نيال جيلسبي واقفاً هناك، لم تستطع إنكار الرعشة التي تملكتها، هازئة من كل تفسيراتها.

ومهما كان تحليلها وتفسيرها للوضع، فلا يمكنها أن تنكر أن نيال يمتلك قدرة غريبة على بعث الاضطراب في نفسها.

ـ آه، أيتها الممرضة! تعالي معي أرجوك. أريد منك أن تساعديني هذا الصباح، إذا سمحت.

كان صوته أقرب إلى الجفاء حين رآها فضبطت سارا أساريرها، راجية الله ألاّ يدرك مدى اضطرابها لكلامه هذا.

فأجابته بهدوء لم تكن تشعر به:

ـ الأخت برينتس هي التي كانت تساعد الدكتور هندرسون، عادة، في عيادة ما قبل الولادة.

ـ هذا ما أعتقده.

وقطب جبينه وهو يلتقط رزمة من الملفات ويتقدم منها مضيفاً:

ـ بما أنّ الأخت برينتس ستتقاعد قريباً فكرت في طريقة ما لتسيير العمل.. فلا فائدة من تدريب الأخت برينتس على طريقتي في العمل.. منذ الآن فصاعدا ستساعد الممرضة «برادشو» الدكتورة «بيتيل» وأنت ستساعدينني.

ـ طبعاً، يا دكتور.

أجابت سارا بذلك بهدوء، ثم سحبت نفساً عميقاً وتبعته إلى غرفة الفحص. كان تعليله منطقياً، طبعاً، لأنها تعلم أن المرأة تطمئن بالاً إن رأت الطبيب والممرضة نفسيهما كلما جاءا للفحص. فهذا ينشىء بينها وبين الممرضات علاقة تعاطف تسهّل عليها الإفضاء إليهن بما يقلقها.

كانت سارا تؤمن بالرعاية المستمرة، إلاّ أن رأي الدكتور هندرسون كان مخالفاً، إذ كان يختار المريضة التي ينبغي عليها أن تزوره في العيادة الخارجية. كانت توافق نيال جيلسبي الرأي ومع ذلك بعثت فيها فكرة العمل معه والقرب منه بهذا الشكل أثناء الأسابيع التالية الاضطراب الشديد. وكيلا يكتشف ذلك، ركزت اهتمامها على عملها بعد أن راجعا معاً قائمة الأمهات اللاتي سيحضرن هذا الصباح لمراجعة الطبيب المختص. كان هناك ثلاث أمهات جديدات، وكل واحدة منهن متوترة الأعصاب لا تعرف ماذا يحدث معها ولماذا.. والحقيقة أن نيال جيلسبي تعامل بشكل رائع معهن، إذ كان هادئاً صبوراً وهو يشرح لهن سبب ضرورة رعاية الأم قبل الولادة وفائدته للأم والجنين.

قال نيال باسماً، لهانا جارڤس، وهو يجلس على حافة سرير الفحص:

ـ لا بد أنك تساءلت عن السبب الذي جعل الممرضة تأخذ منك عيّنة دم للفحص لدى وصولك.

وكانت هانا إحدى الحوامل الجديدات وقد بدت متوترة للغاية، فراح يشرح لها:

ـ هناك أشياء عديدة نريد أن نجري لها فحصاً، ولهذا سنأخذ منك عينة كلما أتيت إلى هنا، لنطمئن إلى أنك لن تصابي بفقر الدم وغير ذلك. أما ما نحتاج إلى معرفته قبل أي شيء فهو نوع دمك وما إذا كان إيجابياً أم سلبياً.

ـ وما معنى هذا يا دكتور؟ هل هو مرض؟

طرحت «هانا» هذا السؤال مقطبة جبينها، لكن سارا لاحظت أنها أصبحت أكثر اطمئناناً واسترخاء بعد حديثها مع الطبيب.

ـ لا، ليس مرضاً. إن دم معظم الناس إيجابي، إنما هناك أشخاص دمهم سلبي وهؤلاء عددهم قليل. وهذا لا يسبب لهم، عادة، أيّ مشاكل. على أيّ حال، إذا كان دمك سلبياً، فمن الضروري أن نعرف ذلك لأنه قد يسبب مشاكل للجنين.

ـ كيف ذلك؟

ـ إذا كان دم الطفل سلبياً، مثل أمه، فما من مشكلة. ولكن إذا كان إيجابياً، فقد يسبب له ذلك فقر دم شديد وسيكون علينا مراقبته بعناية بالغة. إذا تسربت أي خلية من خلايا دم الجنين إلى دمك أنت أثناء الولادة، فسينتج جسدك مضادات تقاوم العناصر التي تحملها خلايا ذلك الدم. ويكمن الخطر إذن في أنه أثناء الحمل، قد تمرّ هذه المضادات عبر المشيمة وتهاجم أي دم إيجابي لجنين آخر قد تحملين به في المستقبل. وإن حدث ذلك أصيب الجنين بأمراض عدة كاليرقان وفقر الدم الحاد أو بتلف في دماغ الجنين حتى.

ـ يا إلهي! أليس لهذا علاج؟ وهل تعني أن المرأة ذات الدم السلبي يجب ألا تخاطر بإنجاب طفل آخر؟

ـ أبداً. الأمر ببساطة هو أننا نعطي الأم إبرة تمنع تشكل المضادات بعد كل ولادة. عند ذلك، لا يتعرض الطفل الثاني الذي ستنجبينه لأي خطر، ولكن يجب أن يوضع أيّ حمل آخر تحت المراقبة، طبعاً.

ـ علمكم رائع، يا دكتور. فأنا لم أكن أعرف سبب أخذ الدم مني للفحص. وأنا أخاف وخز الإبر، لكنني لم أعد أخافها بعد أن عرفت السبب. وسلامة الجنين تستحق ذلك، أليس كذلك؟

أضاءت ابتسامة مشرقة وجه نيال وهو ينهض ويربت على يد الأم قائلاً:

ـ هذا صحيح. وهو ثمن قليل لطفل صحيح الجسم. ستساعدك الممرضة هاريس على الاستعداد لكي أفحصك. إذا كان هناك ما تريدين معرفته، يا سيدة جارڤيس، فاسأليني. فكلما توفرت لديك معلومات، كلما أصبح الأمر أسهل بالنسبة لك.. سأعود بعد لحظات...

غادر غرفة الفحص، تاركاً سارا تعدّ الأم الشابة للفحص كما تفعل مع كل امرأة تقصد العيادة للمرة الأولى.

لقد أدهشها الوقت الذي أمضاه في الشرح، فقد توقعت منه، أن يتصرف بشيء من الفظاظة مع المريضات ولكنه أظهر نحوهن تعاطفاً بالغاً ومداراة لمشاعرهن.

عادت لتعلمه بأن «هانا» جاهزة، وعندما رأته قطبت جبينها للحظة. كان يبدو غامضاً، فتملكها عندها شعور بأنه رجل بارد للغاية يجيد السيطرة على نفسه، لكن بعد ساعات من العمل معه، وجدت نفسها تغير رأيها.

فوراء ذلك المظهر الجليدي، لاحظت الصبر والعطف والروح المرحة. وهذا ما جعلها تتساءل عن شخصية نيال جيلسبي الحقيقية. هل هو حقاً ذلك الشخص العملي البارد الذي يصرّ على أن تجري الأمور كما يريد، أم أن شخصيته الحقيقية هي تلك التي يظهرها لمريضاته بحيث يريح أعصابهن بمهارة يفتقر إليها معظم الأطباء؟ أم أنه ذلك الرجل الذي لمحته الليلة الماضية؟ الرجل الساخر حتى من نفسه؟

تنهدت وهي تتمنى لو تكتشف الجواب فيمكنها، حينذاك، أن تعالج مشاعرها المتضاربة. هل يمكنها أن تعرض نيال جيلسبي على إحدى الآلات، كما هو الحال عند شراء السكاكر أو الشيكولاتة أو غير

ذلك، فتعطيها الآلة الجواب الذي يجعلها تفهم ردة فعلها نحوه؟

أوشكت أن تقنع نفسها بهذا الجواب، لكنها أدركت، عندما جاء، أن الأمر لن يكون أبداً بهذه السهولة. فنيال جيلسبي ليس ذلك الرجل الذي يسهل فهمه، فهو لا يسمح لأحد بالاقتراب منه عاطفياً بحيث يتمكن من معرفته جيداً.

* * *

٣ ـ في الذاكرة. . . دائماً

ـ لم يبقَ سوى السيدة دينغ.

ناولت سارا الملف لنيال جيلسبي ثم ابتسمت للمرأة المستلقية على سرير الفحص.

ـ كيف حالك يا جويس؟ تبدين في أحسن حال!

ـ في قمة الازدهار.

وابتسمت جوس دينغ وهي تحاول أن تستريح على السرير قدر إمكانها، نظراً لوصولها إلى المرحلة الأخيرة من حملها. ضغطت بيدها على بطنها المنتفخة ثم قالت مكشرة:

ـ آه، كما ترين أخذ «سام» يرفس عندما استلقت أمه على السرير.

ـ «سام»؟

ورفع الطبيب نظره بابتسامة، مقطباً جبينه عند سماعه ما قالته المرأة، وأدركت سارا أنه لم يقرأ سوى سطور معدودة من ملف المرأة، وتساءلت عما إذا كان عليها أن تخبره بكل البيانات مسبقاً. لكن، قبل أن تنطق بأي كلمة، أجابت المريضة على سؤاله وقد علت وجهها ابتسامة باهتة.

ـ نعم. نعرف أنه ذكر، يا دكتور جيلسبي. لقد أخبرونا بذلك عندما ظهرت نتيجة فحص السائل الأمنيوسي. وأظن أن ذلك ساعدنا على اتخاذ القرار المناسب، لا سيّما بعد أن رتبت لنا سارا أمر الاجتماع

بروبي.

قطب نيال جيلسبي جبينه مجدداً وهو يعود إلى تقليب الأوراق بسرعة. ورأته سارا يتوقف عندما وصل إلى نتائج الاختبار الأمنيوسي، الذي تخضع له الأمهات اللاتي تجاوزن الخامسة والثلاثين من العمر. ولهذا الاختبار أهمية قصوى، إذ يكشف التشوهات التي قد تصيب الجنين، ومنها إصابة العمود الفقري. ولسوء الحظ، أظهر هذا الاختبار أن طفل جويس دينغ لن يولد طبيعياً.

وضع نيال أوراق المختبر جانباً ثم عقد ذراعيه وهو ينظر إلى المريضة بهدوء.

ضحكت المرأة برقة رغم الحزن الذي بدا في عينيها، ثم قالت:

ـ كان الأمر بمثابة صدمة لنا. فلا أحد يود أن يعرف أن طفله سيولد معاقاً، أليس كذلك؟ لقد حاولنا، أنا ورالف، لسنوات، أن ننجب طفلاً، حتى لم يعد لدينا أمل في ذلك. وإذ بي فجأة اكتشف، وأنا في سن الرابعة والرابعين، أنني حامل!

أمسكت سارا بيد جويس تشدّ عليها. لقد كانت حاضرة حين علم آل دينغ بالخبر، ولكم صُدمت هي أيضاً. وقد تركت شجاعتهما فيها أثراً عميقاً.

وتابعت المرأة حديثها قائلة:

ـ لقد أصبنا بصدمة وذهول بالغين حين علمنا أن سام معاق. ورحنا، نحن الإثنين، نبكي لمدة أسبوع بعد أن وصلتنا نتيجة الفحص. كان حزني وذهولي بالغين حينذاك إلى حد لم أعبأ فيه بمعرفة جنس الطفل. وعدنا إلى العيادة، فأخبرتنا سارا أن الطفل ذكر، فانقلبت كافة الموازين.

ـ وكيف ذلك؟

كان نيال يصغي باهتمام إلى ما تقوله المريضة. ورأته سارا يقطب جبينه محاولاً فهمها قبل أن يبتسم فجأة ويقول:

ـ فهمت. لم يعد الطفل مجرد جنين بل أصبح طفلكما الذكر، أليس هذا ما تعنينه؟

ـ نعم. أصبحنا بعد ذلك، نراه طفلاً صغيراً...

ومسحت جويس دمعة ثم ابتسمت وهي تنظر إلى سارا:

ـ ثم رتبت لنا سارا موعداً للتعرف إلى «روبي» ووالديه.

ـ ومن هو «روبي»؟

طرح نيال هذا السؤال، وهو ينظر إلى سارا التي احمر وجهها حين شعرت بنظراته الباردة تستقر عليها. تجنبت النظر إليه، وقالت:

ـ «روبي» هو ابن قابلة كانت تعمل هنا. وإعاقته هي نفس إعاقة سام. وقد ولد بعد استلامي للعمل هنا بعدة أشهر. لم يكن لدى «لورا»، أمه، أدنى فكرة عن أنه سيولد معاقاً، فلم يكن ثمة سبب يدفعها إلى إجراء الاختبار. كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، ولهذا لم تكن مصنّفة من النساء المعرضات لذلك. لقد كادا، هي وزوجها «أيان»، ينهاران في البداية لكنهما ما لبثا أن تمالكا نفسيهما واعتادا على الأمر.

وابتسمت سارا وهي تتابع: أتمنى لو ترى «روبي»... عندها يمكنك أن تفهم. لأنه فتى بالغ الحيوية، وذكي جداً بالرغم من إعاقته. أنا لا أحاول الادعاء بأن الأمور طبيعية، وبأنهم لن يواجهوا مشاكل في المستقبل، لكنني أعرف أن لورا وزوجها لن يستطيعا العيش بدونه.

قال نيال ببطء:

ـ إنها سارا إذن التي عرّفتكما بروبي ووالديه، مما خفّف من هول المصاب عليكما؟

حاولت سارا أن تفهم المعنى الذي حمله صوته، لكن استحال عليها

ذلك. أتراه كان مدهوشاً؟ أم غاضباً؟ هل يظن أنه ما كان عليها أن تتدخل؟ لم تكن واثقة، لكنها لم تكن صماء، وقد سجّل عقلها المعنى المبطن المبهم في صوته.

أبعدت هذه الأفكار عن ذهنها عندما أجابت جويس موجهة الحديث إليها:

ـ نعم. هذا ما فعلتِه يا سارا. لا شك لديّ في ذلك! فقد جعلتنا نرى أن المستقبل لا يكتنفه السواد فقط، وأدركنا أن بإمكاننا أن نواجه الآتي. إن رؤيتنا لروبي والبهجة التي يضفيها على حياة والديه، جعلت من السهل علينا التفكير في ابتنا. وبدلاً من أن نخجل بسام أمام الناس، أصبحنا نعتبره هدية غير عادية من الله بعد انتظار دام لسنوات.

ـ أظن أن رأيك هذا رائع، يا سيدة دينغ. إنني واثق من أنك وزوجك ستسعدان بهذا الطفل. والآن دعيني أفحصك رغم أن طريقة رفس الطفل في بطنك تنبىء بأن لا داعي للقلق.

ضحكوا جميعاً، وفحص نيال المرأة واستمع إلى دقات قلب الطفل وتحسس وضعه. ثم تراجع إلى الوراء، بينما غطتها سارا بالملاءة، وسألها:

ـ أنت... في الأسبوع السابع والثلاثين الآن أليس كذلك؟

وعندما أومأت جويس إيجاباً، تابع يقول، وهو يدوّن ملاحظاته:

ـ حسناً أصبح رأس سام الآن في الوضعية المناسبة للخروج إلى هذا العالم. ولعلك لاحظت تغيراً ما، منذ يوم أو نحوه.

ـ هذا صحيح. ظننتني أتخيّل ذلك. لكن الرفس بدا وكأنه أخفّ من ذي قبل.

ـ لا، لم تتخيّلي ذلك. وستلاحظين تغييرات أخرى لاحقاً، لكن لا تخافي، فقد لا يعود سام إلى الحركة كما كان يفعل وهذا لا يعني أن هناك

خطباً ما. كل ما في الأمر أنه لم يعد يستطيع تحريك جسمه بعد أن ثبّت رأسه في وضعية الخروج. سيتمكّن من تحريك ساقيه وذراعيه ولكن ليس كمن يلعب كرة القدم في داخلك! وقد تشعرين ببعض الضيق أثناء جلوسك، لكن ذلك طبيعي في هذه المرحلة، إنما اعلمي أن موعد خروجه اقترب.

وضحك وهو يغلق ملف جويس ويقول:

ـ سجّلي موعداً لزيارتك التالية في الأسبوع القادم، لكن لدي شعور بأنك لن تحتاجيه.

غادر غرفة الفحص فيما بقيت سارا لتساعد جويس على النزول من عن السرير. ولم تكن هذه بالمهمة السهلة نظر لحجم بطنها المنتفخ. تنهدت جويس وهي تلبس حذاءها، ثم قالت:

ـ ما أجمل أن أرى قدميّ من جديد. فقد خرجت في الأمس وأنا أنتعل حذاءً غير مناسب ولم أتنبّه للأمر إلا بعد أن لفت نظري إلى ذلك أحد الأشخاص.

ضحكت سارا وهي تعيد ترتيب سرير الفحص، وعلّقت:

ـ إنها إحدى محن الحمل، كما أرى.

ـ هذا صحيح.

وتناولت جويس حقيبة يدها ثم نظرت باتجاه الممر حيث توارى الدكتور جيلسبي لتوّه وأضافت:

ـ لقد أعجبني هذا الطبيب الجديد، سارا. إنه رائع. صحيح أن الدكتور هندرسون كان لطيفاً، لكن الدكتور جيلسبي يجعلك تشعرين بأنك.. ذات أهمية... حالة استثنائية، فهو يهتم فعلاً بما تقولينه له. ولا يبدو وكأن أموراً شتى تشغل باله أكثر منك. هل هو متزوج؟

هزت سارا كتفيها دون اكتراث، في حين تسارعت نبضات قلبها،

وأجابت:

— ـ ليس لدي أدنى فكرة. . يبدو أن لا أحد يعرف شيئاً عن حياته الخاصة.

ـ همم. . . هذا محتمل، بالنسبة لرجل جذاب مثله. ومع ذلك، يلاحظ المرء نوعاً من الوحدة تحيط بشخصيته فتجعلني أتساءل.

وضحكت المرأة بخجل ثم سارعت تقول:

— ـ لا أظن أن الدكتور جيلسبي يرضى بأن نتحدث عنه بهذا الشكل، إذ يساورني شعور بأنّه يحبّ أن يبقى بعيداً عن الآخرين، منطوياً على نفسه، أليس كذلك؟

لوّحت جويس دينغ بيدها لسارا وهي تغادر العيادة، فأخذت هذه الأخيرة ترتب غرفة الفحص، محاولة ألا تفكر كثيراً في ما قالته المرأة ومع ذلك بدا وكأن كلماتها التصقت بذهنها.

هل نيال جيلسبي متزوج؟

وفجأة، فرغ صبرها، فجمعت الملاءات وأخذتها إلى غرفة الغسيل ثم راحت تغسل يديها. وأخذت تعنّف نفسها، وتؤكد أن لديها أموراً أكثر أهمية تفكر فيها، أموراً أهم من التساؤل عما إذا كان نيال جيلسبي متزوجاً أم لا. لكن ما إن انتهت من غسل يديها حتى لمحت وجهها في المرآة الصغيرة فوق المغسلة فقطبت جبينها وهي ترى الفضول قابعاً في عينيها العسليتين.

تنهدت لأنها أدركت أنها تخدع نفسها إذا ما حاولت التظاهر بأن أمره لا يهمها. فسواء أعجبتها الفكرة أم لم تعجبها، نيال جيلسبي يثير فضولها. إنه إنسان غامض يثير الحيرة، والكشف عن شخصيته الحقيقية يشكّل مهمة مستحيلة. لكنها أدركت، فجأة، أن هذا ما تريده. تريد أن تكشف حقيقته، وتحل لغزه، وتزيل ما يحيط به من غموض. . لتصل

بذلك إلى الرجل الحقيقي المختبىء وراء هذا القناع.

ـ سارا، هل يمكنك الحضور إلى الباب الرئيسي حالاً؟ لدينا مشاكل خطيرة!

لم تضيّع إيرين مزيداً من الوقت في التفسير بل أقفلت السماعة. وتركت سارا بقية غدائها على المائدة وتوجهت نحو الباب. لم تستطع أن تتوقع ما حصل، ولكن لا بد أن الأمر خطير كي تظن إيرين أن من الضروري استدعاءها.

رأت عند الباب الخارجي الكبير جمهوراً غفيراً، فشقت سارا طريقها بينهم وهي تتساءل عما حصل. وجدت إيرين راكعة على الأرض قرب فتاة شابة في الثامنة عشرة من عمرها، متكوّمة على الأرض. بدا جلياً أنها حامل وقد فقدت الوعي جزئياً.

— ـ ماذا حدث؟ من هي؟ وما سبب كل هذا؟

طرحت سارا هذه الأسئلة على إيرين وهي تركع إلى جانبها.

ـ إسمها «أرييل»، وهذا كل ما استطعت معرفته عنها حتى الآن.

وكشرت إيرين وهي تنظر إلى الحشد ثم أضافت:

ـ إنهم من فرقة «الجيل الجديد» الرحّالة التي تخيّم في ضاحية المدينة.

— ـ آه.

أومأت سارا وقد أدركت لتوها سبب قذارة مظهرهم، واتساخ ثيابهم الرثة. لقد أثاروا التذمر في المدينة في بادىء الأمر، حين أقاموا معسكرهم منذ شهر أو نحوه. لكن هذا التذمر ما لبث أن خبا عندما لم يسبب هؤلاء الرحّالة أيّ مشاكل.

ـ كيف حالها؟ هل ستكون بخير؟

نظرت سارا إلى وجه الفتى القلق الذي كان منحنياً فوقهن، وسألته:

— ـ هل يمكنك أن تخبرنا بما حدث وعما أصاب أرييل؟

ـ لا أدري. كانت تبدو في أحسن حال الأمس...

ابتلع الفتى بريقه وهو يفرك عينيه ثم أكمل:

ـ عصر الأمس، بدأت تشكو من صداع، وأخذت ترى أضواء متوهجة من حولها. لم أعر الأمر اهتماماً، في البداية، ثم راحت تتقيأ طوال الليل. وهذا الصباح أخذت تشكو من وجع في بطنها، لهذا قررنا إحضارها إلى هنا. لكن أغمي عليها حالما أنزلناها من الشاحنة.

نظرت سارا إلى الخارج حيث رأت شاحنة كبيرة محطمة، ثم عادت لتركز اهتمامها على الفتاة الصغيرة. رفعت الملابس الرثة الحقيرة ثم أخذت تتفحص بسرعة كاحلي الفتاة وساقيها، محاولة اخفاء ذعرها وهي ترى انتفاخهما البالغ والأثر الذي تركته أناملها فيهما.

ـ هل رأيت انتفاخ ساقيها، يا إيرين؟

طرحت سؤالها بهدوء، ولفتت انتباه المرأة الأخرى إلى اكتشافها هذا.

ـ نعم، لاحظت ذلك على الفور، ولهذا السبب استدعيتك. ما رأيك بكل هذا يا سارا، ماذا لدينا؟

بدت إيرين متجهمة، فقطبت سارا جبينها، وقالت:

ـ إرجاج؟ لكن، في عصرنا هذا وأيامنا هذه، يكتشف المرض عادة قبل أن يصل إلى هذه المرحلة المتقدمة...

وسكتت لحظة ثم أكملت:

ـ هذا إذا ما افترضنا أن الأم تظفر بعناية جيدة خلال حملها لكنني لا أظن ذلك محتملاً في مثل هذه الحالة.

ـ أنت على حق، لسوء الحظ.

ووقفت إيرين وأسرعت نحو التليفون لتطلب المساعدة. وبعد لحظات، وصل ممرض وهو يجرّ عربة فرفعوا أريل ووضعوها عليها.

وراحت الفتاة تئن بهدوء.

ـ انتظروا. إلى أين تأخذونها؟

حاول الفتى أن يمنعهم عندما أخذوا يدفعون العربة نحو المصعد، فأومأت سارا إلى إيرين كي تتابع طريقها وحاولت هي أن تستبقيه برقة عندما سارع ليتبعهم.

ـ آسفة، ولكنك لا تستطيع مرافقتها. أريل مريضة جداً وإن لم نعالجها على الفور فقد تموت. إن حالتها خطيرة للغاية إذا نجا الطفل.

أدركت سارا أنها تتحدث عن الواقع بفظاظة، لكنها أحست بأنها الطريقة الوحيدة التي قد تحول بها دون المواجهة البشعة. ونظرت إلى الرحالة الآخرين الذين احتشدوا في الردهة، متسائلة عما إذا كان عليها أن تطلب مساعدة. لكن لم يبدُ عليهم سوى الذهول. وتنبّهت إلى حداثة سنهم، ولاحظت أنهم لم يجتازوا سن المراهقة.

ـ ما... ماذا حدث لها؟

فكررت سارا كلامها:

ـ إرجاج، أي تشنج الحمل، يحدث هذا عندما يرتفع ضغط الحامل، وتزداد نسبة الحامض البولي في دمها. عند ذلك، تبدأ بالتورم. ويعتبر هذا نوعاً من التحذير المبكر ويدعى قُبَيل الإرجاج، على أيّ حال إذا لم تخضع الحامل للعلاج في هذه المرحلة، يظهر الزلال في دمها. وإذا تُركت دون علاج، فستتوقف المشيمة عن العمل كما يجب، فيولد الطفل قبل الأوان. وأخطر ما في الأمر أن يتحول ما قبيل «الارجاج» إلى «ارجاج»، وهو مرض في منتهى الخطورة بالنسبة للأم وللطفل. ولسوء الحظ، إن الأعراض التي ذكرتها تدل على ذلك. ونادراً ما تصل الحامل إلى هذه المرحلة في هذه الأيام، لأن الطبيب يلاحظ الأمر أثناء فحصها قبل الولادة. إنما أعتقد أن أريل لم تزر عيادة الطبيب، أليس كذلك؟

هز الفتى رأسه، وأجاب:

ـ لا. كانت تقول إن الحمل ليس مرضاً، لم تكن تحب الأطباء.

تنهدت سارا، وقالت:

ـ لسوء الحظ، قد تتطور الأمور بهذا الشكل. وأملنا الوحيد هو أن نتمكن من إصلاح بعض ما أفسده نقص الرعاية الصحية.

سألها الفتى:

ـ هل... هل يمكنني البقاء معها؟ فالطفل ابني.

ـ حسناً، نعم. أظن ذلك. لا يمكنك البقاء معها، ولكن يمكنك الجلوس في غرفة الانتظار. على أي حال يؤسفني أن أقول إنّ على الباقين أن يرحلوا.

علا التذمر، لكن المجموعة غادرت أخيراً. فرافقته إلى غرفة الانتظار، وقالت له:

ـ يمكنك أن تنتظر هنا. تجد قهوة في الآلة في آخر الردهة. هل لديك قطع نقدية؟

ـ نعم، شكراً. هل لك أن تخبري أريبل أنني هنا؟ قد يفيدها ذلك.

ـ طبعاً، ما اسمك؟

ـ جيسون.

ـ حسناً إذن يا جيسون. سأعود وأطمئنك حالما أتمكن من ذلك.

وأسرعت سارا مبتعدة، وتركت الفتى يجلس على كرسي والتعاسة بادية على وجهه. استقلت المصعد وهي تدعو الله ألا يكون الأوان قد فات بالنسبة للأم وللطفل معاً.

* * *

ـ ضغط الدم مئة وأربعين على خمسة وتسعين يا دكتور.

ـ حسناً، يجب أن نخفضه، وأن نعطيها دواء يمنع التشنجات.

أعطى نيال توجيهاته متجهماً بعد أن انتهى من فحص المريضة، ثم سأل:

ـ متى بدأت هذه العوارض بحسب قول صديقها؟

ـ أجابت سارا بهدوء: «أمس بعد الظهر».

ـ اللعنة! ولم يفكروا في نقلها إلى هنا حتى الآن!

لم يحاول إخفاء غضبه وهو يستدير ليحملق فيها وكأنه يحمّلها مسؤولية حالة أريبل.

قابلت نظراته باتزان، متفهمة القنوط البالغ الذي سببته له هذه الحالة، فهذه الأمور ينبغي ألا تحدث في عصرنا هذا.

قالت له برقة:

ـ أشك في أن أياً منهما يدرك مدى خطورة الأمر.

ـ أعلم هذا. آسف، فقد تملكني القنوط.

تنهد وهو يبتسم لها بأسى، ثم عاد إلى إيرين التي كانت تراقب حالة جنين أريبل. وابتعدت سارا لتعدّ الحقنة اللازمة، محاولة أن تهدىء دقات قلبها المتسارعة العنيفة. لقد أثرت فيها ابتسامة نيال تأثيراً بالغاً، فانشغل بالها بها.

قالت إيرين وهي تفحص ضغط الجنين:

ـ لست راضية عما أرى، يا دكتور. يبدو أن نبضات قلب الجنين تتباطأ.

ـ دعيني أرَ.

وأخذ نيال يفحصه بسرعة، ثم أضاف:

ـ هذا صحيح. الحالة غير مطمئنة على الإطلاق. أظننا بحاجة إلى...

وسكت فجأة عندما صدرت عن أريبل شهقة، تصلّبت على إثرها.

ـ هيا، إنها تتشنج. هيا إلى العمل، علينا أن تعطيها أملاح «الثيونبتون» لوقف التشنجات ثم نجري بعدها عملية قيصرية لإنقاذ حياة الطفل.

وشرع الجميع بالعمل على الفور لإنقاذ حياة الأم والطفل.

حقنتها سارا بالدواء وقلبها يعتصر على تلك الفتاة المستلقية غافلة عما يحدث لها. وبعد لحظات، استرخت أرييل وتباطأت أنفاسها وهي تغيب عن الوعي. وراحت سارا تصلي كي ينجح الدواء في منع نوبة تشنج أخرى، ولكن لم يكن هناك أيّ ضمانات في هذه المرحلة.

ـ علينا أن نتجنّب العدوى.

وقطّب نيال حاجبيه وهو يرى مدى قذارة ساقي أرييل ثم تابع يقول:

ـ الله أعلم كيف وصلت إلى هذه الحالة.

قالت سارا وهي تنظف بطن الفتاة بحذر بمحلول مطهر:

ـ هناك مجموعة من رحالة «الجيل الجديد» تخيّم في ضاحية المدينة، وهي معهم.

ـ هذا ليس عذراً. لقد عملت في بلاد كان الماء فيها أغلى من الذهب، ومع ذلك كان الناس يحرصون على نظافة أجسادهم!

كانت لهجة نيال قاطعة وقد ظهر عليه الغضب من جديد.

ألقت عليه نظرة سريعة، متسائلة عن السبب الحقيقي لاستيائه.

بدا وكأنه ناشيء عن شعور أبعد من مجرد الاهتمام بحالة أرييل، وكأن الخطر المحدق بالمريضة وطفلها يؤثر فيه شخصياً.

قطبت سارا جبينها، وتابعت عملها في تعقيم موضع العملية.

لقد ظنّت من قبل أن نيال رجل غامض، والآن أصبح ظنها يقيناً.

ما الذي جعل نيال جيلسبي ما هو عليه الآن؟ وتمنت لو تكتشف الحقيقة، رغم أنها لم تستطع أن تفهم لما احتل هذا الرجل هذه الأهمية عندها.

* * *

٤ ـ سيد الصقر

ـ ضعيها في «العناية الفائقة» في الحال، يا إيرين، ولمدة أربع وعشرين ساعة. هذا إذا ما عاشت حتى ذلك الحين.

وتنهد نيال وهو ينظر إلى الكتلة البشرية الموضوعة في الحاضنة، وأضاف:

ـ وهذا أمر غير مؤكد، يا للصغيرة المسكينة.

ابتسمت إيرين بحزن، وقالت:

ـ لا يبدو أنها ستعيش، أليس كذلك؟ فهي لا تكاد تزن كيلو غراماً ونصف كما أن تنفسها لا يدعو إلى الإطمئنان.

هز كتفيه، وقال:

ـ كان من الممكن أن تعيش لو وصلت الأم إلى نهاية حملها. لكن في هذه الحالة لم يكن بإمكاننا أن نتركها في الرحم. وهي محظوظة إذا ما بقيت حية. فلنكن واقعيين، لديها الآن حظ في الحياة أكبر مما كان لديها منذ ساعة خلت.

تنهدت سارا وهي تمرّر إصبعها برفق على الذراع الصغيرة. . كان جلد الطفلة مخضباً بالإحمرار، والأوعية الدموية ظاهرة من خلال الجلد بسبب نحولها الشديد. فحالة «قبيل الإرجاج» تعطل عمل المشيمة، لذا عانت الطفلة في الرحم من سوء التغذية.

كانت تتنفس بسرعة، ويصدر عنها شخير خفيف أثناء كفاحها

للحصول على الهواء. لقد ولدت الطفلة قبل أوانها بعدة أسابيع، لهذا لم تكن رئتاها قادرتين على التمرّد، مما دفعها إلى بذل الجهد لتتمكن من التنفس، ويؤدي هذا الأمر حكماً إلى إرهاقها.

في قسم العناية الفائقة ستزوّد بالأوكسجين لتفادي ذلك.

ـ والآن، فلننه مهمتنا هنا.

وبدأ نيال علاج الأم، فيما جرّت إيرين سرير الطفلة خارج الغرفة. وكانت أرييل قد أعطيت إبرة تحتوي على دواء يفصل المشيمة عن جدار الرحم، ولم يبق أمامهم الآن سوى إخراجها وخياطة الجرح.

أخذ يخيط جرح الرحم بسرعة وكفاءة، طبقةً بعد طبقة.

إستغرقت العملية وقتاً طويلاً، وشعرت سارا بالفخر لمساعدتها هذا الطبيب. فقد سبق أن شاركت في عمليات قيصرية عديدة، لكنها نادراً ما رأت عملية تتم بمثل هذه الدقة والمهارة اللتين أظهرهما نيال جيلسبي. أحصت الآلات الجراحية وقطع الشاش التي استعملاها، ووضعت جميع ذلك على العربة ثم دفعتها بعيداً. وابتسمت لهيلين التي كانت قد دخلت لتساعدهما وهي المرة الأولى التي تشارك بعملية قيصرية.

ـ إنه بارع وذكي للغاية، أليس كذلك؟

حمل صوت هيلين نبرة إعجاب جلية، ونظرت إلى السرير حيث كان الدكتور جيلسبي يفحص نبض أرييل. وكانت هذه الأخيرة لا تزال فاقدة الوعي بسبب الدواء الذي أعطي لها.

نظرت سارا إلى الوراء، وشعرت بقلبها يخفق بلهفة كعادته في الأيام الأخيرة. ثم قطبت جبينها حين استقرت عيناها للحظة على رأس نيال المنحني، متسائلة عما يثير اهتمامها في هذا الرجل، ويجعل قلبها يخفق بهذا الشكل. . .

ـ سارا؟

وعندما لم تجب سارا نهرتها هيلين، فسارعت هذه تقول:

ـ نعم، إنه ماهر. كان الدكتور هندرسون ماهراً جداً، لكن نيال ضليع في عمله.

سألتها هيلين ممازحة:

ـ هل تدعينه نيال فقط؟ أصبحتما إذن على قدم المساواة أليس كذلك؟ وقلت إنه (أنزلني فقط أمام بيتي)؟ أتساءل عما حدث بينكما حقاً الليلة الماضية؟

احمر وجه سارا غضباً، وراحت تتساءل متى بدأت تفكر فيه بصفته (نيال) فقط. إذ لم يخطر في بالها قط أن تدعو الدكتور هندرسون بغير شهرته ولقبه، وها هي تنادي هذا الرجل باسمه وكأنهما صديقان حميمان.

وازداد احمرار وجهها، من الأفكار التي راودتها لا سيما الكلمتين الأخيرتين. وسمعت هيلين تضحك للتفسير الذي أعطته لاحمرار وجهها.

ـ انتظري، يا سارا، حتى أخبر الجميع بأنك تخفين عنا أخبارك.

ـ أنا لم أفعل. أعني...

لم تنهِ كلامها لأنها رأت نيال يستدعيها. وسرعان ما ارتسمت على ملامحها ابتسامة مهنية، وهي تتقدم نحوه، لكنها لم تستطع أن تتغلب على احمرار وجنتيها.. لاحظت عينيه تطيلان النظر إلى وجهها المتوهج، قبل أن يعاود النظر إلى الفتاة النائمة على السرير:

ـ يبدو أن حالتها قد استقرت. لقد تراجع ضغطها، ويبدو أنها لن تصاب بنوبة تشنج أخرى، ولأننا غير واثقين من ذلك في هذه المرحلة. أريدها أن توضع في غرفة محايدة في جوّ هادىء للغاية. كما سنستمر في إعطائها أملاح «الثيونبتون». ولكن يمنع عليها استقبال

الزائرين أو أي نوع من الإثارة حتى نتأكد من زوال الخطر عنها.

وأصبح صوته فجأة جدياً جداً وهو يضيف:

ـ لم يُزل الخطر عنها، لهذا علينا أن نكون مستعدين. أريد أن نخصص لها ممرضة خاصة لمدة أربع وعشرين ساعة وربما أكثر.

قطبت سارا حاجبيها، وقالت:

ـ لا أدري إذا كان لدينا ممرضة مناسبة. فنحن نعاني من نقص في الممرضات.

تجهم وجهه وهو يبتعد عن السرير ثم قال:

ـ علينا إذن أن نتدبر الأمر.

وعندما وصل إلى الباب وقف ونظر إلى الخلف.

ـ شكراً يا سارا. قمتِ بعمل رائع اليوم، كما أنني أقدّر مهارتك المهنية.

توارى قبل أن تجيبه سارا، تاركاً الباب يتأرجح خلفه.. أخذت نفساً عميقاً لكنها لم تستطع محو السرور الذي تملكها لمديحه هذا. فأن يمتدح عملها شخص ماهر كفؤ كنيال جيلسبي، يعني الكثير...

وسرعان ما حوّلت مجرى أفكارها، فهي لا تريد أن تنجرّ وراء تخيّلات غبية فتتصور أن نيال وجد فيها ميزات أخرى جديرة بالتقدير. فنتيجة هذه الأفكار لن تكون سوى الأحزان والأشجان.

* * *

ـ لكن لماذا لا أستطيع أن أراها؟ أريد أن أطمئن إلى حالتها.

تنهدت سارا حين لاحظت أن الموجودين في غرفة الانتظار يتبادلون نظرات الضيق، فأشارت إلى جيسون بأن يتبعها إلى الممر، بعيداً عن مسامع الآخرين.

ـ ما زالت أرييل مريضة للغاية. وهي حالياً تحت تأثير المخدّر ولن

تعرفك. لقد تعرضت، لسوء الحظ، إلى تشنج، ولا نريد أن يتكرر ذلك مرة ثانية، ولهذا منع عنها الدكتور جيلسبي الزيارات حالياً.

فردد قولها مذهولاً:

ـ تشنج؟... أتعنين نوعاً من... النوبة؟

ـ نعم، وهذا نتيجة مرضها. عندما تستيقظ، يجب أن تتابع العلاج لفترة كي لا يصيبها المزيد من التشنج. ويمكن لأيّ إثارة أن تسبب لها نكسة، وهذا ما نحاول تجنّبه.

ـ فهمت. ولكن ماذا عن المولود؟ هل... هل هو بخير؟

وابتلع ريقه بجهد وقد بدا التكدّر عليه. وشعرت سارا بالعطف نحوه، لكن راحة الأم والطفلة كانت في أولوية اهتماماتها.

ـ إنها في قسم العناية الفائقة، لقد اضطر الدكتور جيلسبي إلى إجراء عملية قيصرية وإلا ماتت. إنها صغيرة جداً لا تكاد تزن كيلواً ونصفاً، كما تجد صعوبة في التنفس وهذا شيء عادي لدى الأطفال الذين يولدون قبل الأوان. الساعات القادمة ستكون حاسمة بالنسبة لها هي أيضاً.

ـ هي؟ هل هي أنثى؟

وانهمرت دموعه دون خجل، على وجهه وهو يضيف:

ـ كانت أريبل تقول إنها بنت صغيرة. أرادت أن تسميها «ستار».

وضعت سارا يدها على ذراعه، وتمنت لو تستطيع أن تطمئنه أكثر. لكنها لم تشأ أن يبني آمال خاطئة على محاولتها التخفيف عنه، فقالت له:

ـ إنه اسم رائع. وسأجعل الممرضة تضعه على سريرها.

ـ شكراً. أتظنين أن بإمكاني رؤيتها؟

ومسح جيسون أنفه بكمه وحاول أن يبتسم. فأدركت سارا أن وراء هذه القذارة فم جميل الشكل وأضاف:

ـ آه، أعلم أنه لا يمكنني أن أحملها، ولكن إذا ما رأيتها، فسأتمكن

من وصفها لأريبل. فلا بد أنها تريد أن تعرف شكلها حالما تستيقظ.

ـ حسناً...

تنهدت سارا وهي تنظر إلى ثيابه ثم قالت له:

ـ اسمع يا جيسون. لا يمكنك أن تقترب من قسم العناية الفائقة وأنت بهذه الحالة. فالأطفال هناك ضعفاء جداً ولا يستطيعون مقاومة العدوى، ولعلك تحمل كافة أنواع الجراثيم.

احمر وجهه وهو يتأمل مظهره.

ـ آه! ولكن.. ماذا لو اغتسلت ولبست ثياباً نظيفة. فهل يمكنني رؤيتها؟

أجابت مشجعة:

ـ طبعاً يمكنك ذلك. هل لديك مكان يمكنك أن تغتسل فيه وأن تغيّر ملابسك؟

ـ حسناً، لا.

وهز رأسه وقد انعكست على وجهه خيبة أمله، لكنه عاد وأضاف:

ـ هناك جدول ماء قرب معسكرنا. أما بالنسبة إلى الملابس، فهذه التي أرتديها هي كل ما أملكه.

عضّت سارا على شفتها متسائلة عما إذا كان هناك أيّ حلّ. فبالرغم من مظهره الرث، كان واضحاً أنه يحب أريبل والطفلة كثيراً. وقطّبت حاجبيها حين خطرت لها فكرة، وتساءلت عن رأيه فيها، لكنها جازفت وطرحتها:

ـ هناك شخص قد يقبل بمساعدتك. إنكم تخيّمون قرب الكنيسة، أليس كذلك؟ ما رأيك لو اتصلت بالكاهن لأرى إن كان بإمكانه أن يساعدك؟ إنه رجل طيب ويسعده أن يقدم العون.

فقال بمرارة:

ـ لا أدري . . . لا أظنه يحب مساعدة أمثالي. فمعظم الناس يرفضون ذلك حين يروننا.

ـ ربما يمنعهم من ذلك مظهركم هذا.

ورمقته بنظرة ذات مغزى، وتأملت خصلات شعره المتشابكة المتدلية على جبهته. وكان قد حلق صدغيه وزينهما بوشم وعلّق في أذنيه قرطين فضيين.

كان مظهر جيسون كفيلاً ببعث الحذر في نفس من يراه، وشكت للحظة بصوابية وفائدة ما اقترحت. ولكن حين أومأ موافقاً، لم تجد أمامها خياراً آخر سوى تنفيذ وعدها.

توجهت إلى المكتب واتصلت بالكاهن، الذي أطلعته بتردد على سبب اتصالها به. وكانت قد قابلته أكثر من مرة حين كان يحضر إلى قسم الولادة لزيارة زوجة الأسقف، ولاحظت أنه رجل متواضع جداً. في أثناء المكالمة ابتسمت ذلك أنه عرض عليها خدماته على الفور، متجاهلاً ما ذكرته حول مظهر جيسون.

وأخبرها باختصار، أنه كان في الماضي كاهناً في مدينة داخل البلاد قبل أن يُنقل إلى «دلفرستون»، وقد عمل مع المتشردين. لهذا، تعلّم منذ مدة طويلة ألا يمنعه المظهر من خدمة الإنسان.

وعندما عادت إلى جيسون لتخبره بما جرى، أخذ يشكرها بشكل مؤثر، ثم أسرع متوجهاً إلى مقر الكاهن. راحت سارا تنظر إليه، والابتسامة تعلو وجهها فقد أدركت أن الكاهن كان محقاً. فالمظهر لا يهم كثيراً، إنما جوهر المرء هو الأهم. وأعاد ذلك أفكارها إلى نيال جيلسبي مجدداً، وإن لم تكن هذه الأفكار قد ابتعدت عنه كثيراً.

* * *

ـ سأمر لاصطحابك في الساعة السابعة. اتفقنا؟

ـ حسناً، لا أدري . . .

وكبحت سارا آهة وهي ترى تعابير وجه مايك. فرسمت ابتسامة على وجهها، محاولة تجاهل ألم قدميها وظهرها، وتابعت:

ـ بكل تأكيد. إلى اللقاء فيما بعد، إذن.

ـ ممتاز.

وابتسم لها وهو ينطلق على دراجته النارية، التي أخافت مجموعة من الطيور فجعلتها تطير عن الأشجار. وتبعته سارا على مهل، متمنية لو تحلّت بالشجاعة الكافية لتخبره بعدم رغبتها في مشاهدة الفيلم الليلة.

كانت تكره أن تخيّب أمله، لكن عليها أن تفعل ذلك قريباً. فمن الأفضل أن تقطع علاقتها بمايك في القريب العاجل، لئلا يعتقد أن الأمور بينهما قد تتطور إلى أبعد مما هي عليه.

وضاعت في أفكارها إلى درجة لم تلاحظ معها السيارة خلفها. ولم تلتفت إلا حين أصبحت بمحاذاتها، وإذ بقلبها يتخبط بين ضلوعها فالجالس خلف عجلة القيادة نيال جيلسبي.

توقف بجانبها ثم أنزل زجاج النافذة، وسألها:

ـ هل تريدين أن أوصلك؟ أنا ذاهب في اتجاه بيتك.

ـ آه، أنا . . حسناً . . .

أربكها عرضه هذا بحيث لم تعرف بما تجيب. وعلا بوق سيارة فنظر نيال خلفه بفروغ صبر، وقال:

ـ هيا، اصعدي. يبدو أنني تسببت بزحمة سير.

ولم يعد أمامها إلا أن تطيعه. ففتحت باب السيارة وصعدت إليها. وانتظر حتى وضعت حزام الأمان ليخرج بالسيارة من البوابة، مخففاً سرعته وهو يشق زحمة السير.

وجدت سارا نفسها مسترخية في مقعدها، وقد شعرت بالاستقرار

وكأنها في أيدٍ آمنة. لم يساورها هذا الشعور في المرات القليلة التي وافقت فيها على الركوب خلف مايك على دراجته النارية، بل كان يتملكها التوتر فتجد نفسها عاجزة عن التنفس.

ـ فيمَ تفكرين؟

أجفلت، ثم ضحكت بارتباك حين لاحظت أنها مستغرقة في أحلام اليقظة. نظرت حولها، رافضة أن تسرد تفاصيل ما كانت تفكر فيه، وقالت:

ـ آسفة. كنت على بعد أميال من هنا. هل أنت واثق من أنني لن أؤخرك عن مشاغلك؟

ـ أبداً. فأنا أسكن قرب النهر، في منزل جاكسون القديم. هل تعرفينه؟

سألته بعدم تصديق:

ـ لست واثقة... أليس ذلك البيت الريفي القديم المتصدع؟

ـ هو نفسه.

وضحك لذهولها ثم أضاف:

ـ أظنك تعتبرينني مجنوناً لاختياري بيتاً كهذا.

وسكتت لأنها لم تعرف ماذا تقول.

ـ حسناً...

ـ أرى أن لباقتك هي فضيلة أخرى من فضائلك.

وابتسم وهو يستدير بالسيارة ليترك الطريق الرئيسي ويتوجه نحو وسط المدينة.

ـ فسألته مستفهمة قبل أن تتمكن من ردع نفسها: «واحدة أخرى؟».

ثم احمر وجهها عندما أدركت معنى ما قالته، وأضافت على عجل:

ـ انس ما قلته، فأنا لا أسعى إلى سماع المديح.

ـ لست بحاجة إلى إجهاد نفسك في السعي، يا سارا. فقد عنيت ما قلته عصر هذا اليوم، عندما أعربت عن تقديري لمهارتك المهنية. كما أن من الواضح للجميع أنك لست ماهرة في مهنتك وحسب بل تهتمين كثيراً بمرضاك. وهذا نادر في أيامنا هذه، فالطب أصبح مهنة أكثر منه رسالة.

أشاحت بوجهها خشية أن تفضح أساريرها سرورها بهذا الإطراء. لقد عنى لها هذا الرأي الكثير، لا سيما أنه صادر عنه.

قالت بسرعة:

ـ أنا أعشق مهنتي. وقد تمنيت أن أمارسها منذ طفولتي. وعندما خضعت للتدريب في قسم التوليد أثناء فترة تعليمي، أدركت أني أريد أن أتخصص في هذا المجال. إذ يتملكني شعور رائع عند كل ولادة أحضرها.

ضحكت بخجل ثم أضافت:

ـ ما كان عليّ أن أخبرك بهذا كله. ما الذي جعلك تختار هذا الاختصاص دون غيره؟

شدّ نيال قبضتيه على عجلة القيادة حتى أضحت أطراف أصابعه بيضاء:

ـ أسبابي تختلف عن أسبابك، يا سارا.

ولم يزد.. فكان أن ترك مساحة صغيرة من الصمت المشحون بالأسئلة. ما الذي عناه بذلك؟ لقد فضح صوته... ما يشبه العذاب وهو يجيب عن سؤالها، ولم تعلم السبب.

عضت على شفتها حائرة، والشوق يدفعها إلى أن تطلب منه تفسيراً. لكنها شعرت بأنه لا يريد الإفصاح عن أمر ما، فشكّل هذا لغزاً آخر يضاف إلى سجل غموض هذا الرجل.

وهكذا عادت إلى حديثهما السابق:

ـ ما الذي جعلك تشتري بيت جاكسون على أيّ حال، بينما يمكنك

شراء أفضل منه؟

ـ هذا صحيح. لكنني لم أجد ما أريده، كالأرض مثلاً.

ورمقها بنظرة ثاقبة سريعة، فتملكها الاضطراب وهي تتساءل عما قرأه من الأفكار المتضاربة في ذهنها، بما في ذلك شعورها المشوّش نحوه.. وأخذت تتشاغل بترتيب ثوبها، وسألته:

ـ أنت إذن تهوى البستنة؟ فهل هذا سبب رغبتك في الأرض؟ أم أن لديك أسرة وتريد أرضاً واسعة ليلعب الأطفال؟

ـ لا. ليس لي أولاد أو زوجة.

قال ذلك بخشونة فرمقته بنظرة خاطفة لكن وجهه لم يفضح أيّ شعور أو تعبير.

أخذ نفساً عميقاً، باذلاً جهده، كما يبدو، ليبعث المرح في صوته ومزاجه:

ـ على أيّ حال في حياتي أنثى ملحاحة في طلباتها، ولهذا بحثت عن مكان فسيح.

والتفت إليها باسماً وهو يراها تفغر فمها دهشة ثم تابع يقول:

ـ أتريدين التعرف إليها يا سارا؟ أظنكما ستنسجمان معاً، وهذا إطراء حقيقي لك لأن هذه السيدة لا تنسجم أبداً مع الإناث الأخريات.

وضحك برقة مازحاً ولم تدرك السبب. وتساءلت كيف يمكنها أن ترفض هذا العرض دون أن تجعله يتساءل عن السبب. وفي الواقع، لم تجد فكرة التعرف إلى تلك المرأة الهامة في حياة نيال، ممتعة، لكن عندما رأت عينيه الضاحكتين، لم تشأ أن ترفض.

كانت تود أن تعرف شيئاً عنه، لكنها أدركت أن ذلك لن يعجبها.

* * *

ـ ها هي واسمها «أدير». ما رأيك فيها يا سارا؟ هل هي جميلة كما

توقعتها؟

أدركت سارا أنه كان يمازحها، وهو يمدّ ذراعه بعد أن لبس قفازاً سميكاً من الجلد. وكان فعلاً بحاجة لهذا القفاز ليحمي ذراعه من مخالب ذلك الطائر الأحمر الضخم المخيف الذي جثم عليها.

قالت سارا، وهي تجاهد للسيطرة على مشاعرها:

ـ إنها جميلة جداً... أي نوع من الطيور هي؟

ـ إنها صقر أحمر.

ومرّر يده بلطف على رأس الطائر المزهو بنفسه وراح يبتسم وهو يجيبه بأصوات خفيفة، ثم قال:

ـ إنها عندي منذ ثلاث سنوات، ومن أجلها أردت أرضاً فسيحة.

واستدار لينظر إلى القفص الهائل الذي يعيش فيه الطائر، وتابع:

ـ تحتاج «أدير» إلى مكان واسع، وطول هذا القفص خمسة وثلاثون قدماً، أما ارتفاعه وعرضه فخمس عشرة قدماً. وهذا ضروري لكي تمرّن جناحيها حين لا يكون لديّ الوقت الكافي لأطلقها وتطير بحرية.

ـ لماذا أسميتها «أدير»؟

طرحت سارا سؤالها بصوت خفيض يماثل صوته هدوءاً ورقّة، وإذا برأس الطائر يلتفت نحوها على الفور، وترمقها عيناه بنظرة حادة ثاقبة.

ـ إنه لقب المحاربين من الهنود الحمر، وهذا يتناسب مع لونها وطريقة حصولي عليها.

فقالت باسمة:

ـ هذه قصة تثير الفضول وعليك أن تخبرني إياها، يا نيال.

فضحك وأجاب:

ـ طبعاً. وقع حادث لشاحنة تنقل البترول قرب المستشفى الذي كنت أعمل فيه. فاشتعلت النيران في مساحة واسعة من الأراضي المغطاة

بالغابات، وحاصرت عدداً من الأشخاص الذين كانوا يخيّمون فيها حينذاك. وقد تجنّد جميع العاملين في المستشفى لمواجهة ذلك، وطُلب مني المشاركة، لا سيما أنّ امرأة حامل في شهرها السابع، احتجزت تحت شجرة، وبدأت تلد طفلها بفعل الصدمة.

ارتجفت سارا وهي تتصور ما حدث، وعلّقت قائلة:

ـ لا بد أن ذلك كان مرعباً. وهل عاش الطفل؟

فهز نيال رأسه بحزن وأجاب:

ـ لا. لم أستطع أن أنقذه، فقد ولد ميتاً. كل ما استطعت أن أفعله هو المساعدة في إنقاذ الأم. لقد شعر الجميع بالحزن لذلك: محاربو الهنود الحمر، الفريق الطبي، الشرطة... وفيما كنا نستعد للرحيل، لاحظت شيئاً ملقى على الأرض. وكان طائراً... فرخ طير في الواقع. كان لا يزال حياً لهذا حملته معي إلى البيت، إذ لم أستطع احتمال فكرة تركه ليموت.

ـ وذلك الفرخ كان «أدير». وقد دعوتها بهذا الاسم لأنها نجت من نار البترول، وتيمّناً بالهنود الحمر الذين يطفئون النار التي تشب في آبار البترول في أنحاء البلاد، أليس كذلك؟

ضحكت سارا برقة وقد تأثرت بهذه القصة. وابتسم هو وعاد ليمرر يده على رأس الطائر:

ـ هذا صحيح. اعتقدت في البداية أنها لن تعيش. كان عليّ أن أرعاها بنفسي، إذ لم أستطع أن أعيدها إلى الغابة لئلا تموت. لهذا حبستها في القفص ورحت أطلقها لتطير كلما أمكنني ذلك. ويبدو أنها سعيدة هنا.

ـ وهي كذلك. كما أنها متملكة جداً.

وضحكت عندما ألقت «أدير» عليها نظرة جانبية، وأضافت:

ـ أظنها تشعر نحوك بحب التملك.

ـ أعلم ذلك. فهي لم تتعود أن يشاركها فيّ أحد.

وأعاد الطائر إلى مجثمه، ثم خلع القفاز لكي يتمكن من فتح باب القفص.

تبعته سارا، وانتظرت حتى أقفل الباب الداخلي قبل أن يفتح البوابة الخارجية. التفتت إلى الخلف وراحت تتأمل «أدير» وهي تطير برشاقة في القفص لتحط بعد ذلك على غصن شجرة وُضعت داخله بمهارة لتكون مجثماً طبيعياً لها.

ما الذي عناه نيال بقوله إن «أدير» لم تعتد أن يشاركها أحد فيه؟ ألم تمرّ في حياته امرأة منذ ثلاث سنوات؟

بدا ذلك صعب التصديق، خاصة أن نيال جيلسبي رجل جذاب للغاية، تتهافت عليه النساء. لكن سارا أحست بأنه نطق بالحقيقة، مما أذهلها. لماذا تجنّب العلاقات مع النساء في السنوات الأخيرة؟ هل لأنه اختار التركيز على عمله فقط؟ أم أن هناك سبباً آخر؟

فيما كانت تتبعه عائدة إلى السيارة قطبت جبينها محاولة أن تجد جواباً عن تساؤلاتها. بدا واضحاً أن نيال مأخوذ بعمله بحيث تفهم أن الوقت لا يسمح له بإقامة علاقات اجتماعية. ومع ذلك أحست بأن ثمة سبباً آخر لاختياره هذه الحياة.

هل سبق أن كانت له علاقة عاطفية سببت له صدمة بالغة؟ وهل هذا ما جعله يتجنب أيّ علاقة أخرى ويركز حياته على عمله؟

تملكها الأسى لهذه الفكرة. لا بدّ أن نيال جيلسبي أحب المرأة التي خذلته إلى حدّ جعله يجد صعوبة في الالتزام بعلاقة أخرى، حتى بعد مرور سنوات. وبدا جلياً أنه لن يخاطر في الارتباط بعلاقة غرامية أخرى.

عادت سارا إلى السيارة وهي تتساءل عن السبب الذي جعلها تشعر بالفراغ بعد أن راودتها هذه الفكرة.

* * *

٥ ـ النبضات الهائمة

ـ كيف كان موعدك؟ هل استمتعت بوقتك؟

ـ رددت سارا ببلادة: «موعدي؟».

ـ إلى السينما مع مايك. لا تقولي لي بأنك نسيت الأمر؟

وضحكت إيرين وهي تلتقط مئزراً ثم أضافت:

ـ ربما هناك شخص آخر يشغل ذهنك... كطبيبنا الوسيم نيال، مثلاً؟

ـ لا طبعاً. لا تكوني سخيفة. كل ما في الأمر أنني لم أفهم ما قصدته.

وعضت سارا على شفتها وهي ترى نظرة إيرين، وتمنت لو أنها لم تتسرع بهذا الشكل لإنكار ما هو مجرد دعابة. لكنها أنكرت بعنف لأن في ما قالته إيرين شيئاً من الحقيقة.

وتنهدت وهي تلتقط مئزراً آخر، واعترفت لنفسها بأسف بأنها لا تكاد تتذكر شيئاً من سهرتها مع مايك داوسن، حتى أنها لا تتذكر اسم الفيلم الذي شاهداه. فقد احتل نيال جيلسبي تفكيرها كله، على مدار اليومين الماضيين، من لحظة استيقاظها صباحاً، وحتى خلودها إلى النوم مساءاً.

لقد مضى يومان على لقائها الأخير بنيال حيث أوصلها إلى بيتها للمرة الثانية بعد أن عرّفها إلى «أدير». ولم تطلع سارا أحداً على الأمر،

كما لم تكن لديها النية لتفعل ذلك، خصوصاً بعدما قالته إيرين لتوّها.

كانت في إجازة منذ ذلك الحين، وقد أمضت وقتها في تنظيف منزلها الصغير المميز بشرفته. وشعرت، بطريقة ما، بالراحة بعد زيارتها تلك إلى منزل نيال التي شوشت أفكارها. وقد توصلت في الليلة الماضية إلى حل يقضي بأن تبتعد عنه لفترة من الزمن. وسيكون الأسبوع القادم فرصة سانحة لذلك، إذ ستستلم المناوبة ليلاً لمدة خمسة أيام، ولن تصادفه غالباً، مما يمنحها بعض الوقت لتنظم حياتها وتتوقف عن التفكير فيه طوال الوقت. لكنها أدركت الآن أن إقصاء نيال عن ذهنها لن يكون بهذه السهولة.

ـ حسناً، لا أظننا سنواجه أيّ مشكلة حقيقية عدا عن إزعاج «تريشا». فهي لم تتوقف عن الشكوى منذ أحضروها إلى هنا.

فضحكت سارا وتبعتها إلى داخل الغرفة، مصممة على أن تركز تفكيرها على عملها. نظرت المرأة الشابة المستلقية على السرير إليهما وما لبثت أن لوت شفتيها منزعجة.

ـ قلت لكم إنني أريد حقنة المسكن. فلماذا لم تعطوني إياها؟

قالت إيرين:

ـ طلبت من الدكتورة «بيتل» أن تأتي لتفحصك، يا تريشا. وهي ستطلب من طبيب البنج أن يعطيك الحقنة إذا ما كنت تريدينها.

ردت تريشا بحدة وهي تحملق فيهما:

ـ طبعاً أريدها. ولماذا أتحمّل العذاب؟

تقدمت سارا من السرير لتفحص مدى اتساع رحم المرأة. فوجدت أنه لم يصل بعد إلى الثلاثة سنتمترات، مما يعني أن المخاض ما زال في مرحلته الأولى، وأن الطلق سيكون قصيراً ومتباعداً قبل أن يتسع الرحم بما يكفي لولادة الطفل.

قالت تخفف عنها:

ـ كل شيء طبيعي يا تريشا. وإذا كنت تشعرين بحاجة ماسة إلى مخدر، فأنا واثقة من أن الدكتورة «بيتل» سترضى بإعطائك. على أيّ حال، تعلمين أنه إذا ما خُدّر القسم الأسفل من جسدك، فلن تشعري بالطلق أليس كذلك؟

حدقت تريشا فيها ببرودة، وأجابت:

ـ أعلم طبعاً، فأنا لست غبية. ولهذا أريدها! ألا يكفي أن هذا الطفل في أحشائي حتى يكون عليّ أن أتألم أيضاً...؟

سكتت فجأة ثم صرخت:

ـ آوه ه ه... افعلا شيئاً من أجلي. أليس هذا هدف وجودكما هنا؟

فرفعت أيرين حاجبيها قائلة لسارا:

ـ سأتصل مرة أخرى بمينا.

أومأت سارا وهي تحاول أن تهدّىء تريشا. ولم تكن هذه بالمهمة السهلة لأن المرأة كانت مصممة على تصعيب الأمور وتعقيدها. وتوالى الطلق، فشعرت بالراحة عندما جاءت الدكتورة مينا بيتل ووافقت على استدعاء طبيب البنج.

اتصلت سارا بالطبيب وإن كانت، على غرار إيرين، تفضّل عدم اللجوء إلى المخدر، الذي يراد منه ألا تشعر المرأة بالألم، ولكنه يمنعها من التجاوب مع الطلق بعد أن تفقد الإحساس بالقسم السفلي من جسمها.

على أي حال، وعندما ترفض المرأة الإصغاء إلى آراء الآخرين، يضطر الفريق الطبي إلى النزول عند رغبتها، والعمل وفقاً لرأيها.

وكان حقن هذه المرأة بالمخدر أشبه بالكابوس. فقد تعاونت إيرين وسارا معاً كي تمنعا تريشا من الحركة أثناء حقنها بالإبرة بين فقرات العمود الفقري. ووجدت صعوبة في الاستلقاء على جنبها بسبب حملها،

فلم تكف عن الصراخ وإطلاق اللعنات والشتائم أثناء محاولتهم تقديم العون لها.

وعندما انتهى الأمر، تنهّد طبيب البنج «جون ريدواي»، بارتياح، وقد ارتسمت على ملامحه الأحاسيس والأفكار التي يأبى الإفصاح عنها أمام المريضة.

وضحكت سارا عندما رأته في الممر خارج الغرفة، فراح يعبّر عن تعاطفه معها لما ستواجهه مع هذه المريضة. لوّحت له بيدها وهو يتوجّه نحو المصعد، لكن ابتسامتها ما لبثت أن بهتت عندما انفتح باب المصعد ليخرج منه نيال. ومضت لحظة تلاقت فيها عينيهما، لحظة واحدة فقط، شعرت أثناءها أن حياتها كلها اختصرت فيها.

بدا وكأن عينيها تعلقتا بعينيه بجاذبية خارجة عن سيطرتها. وحين حوّل عينيه مسرعاً نحو الاتجاه المعاكس، شعرت وكأنها سقطت من السماء إلى الأرض.

أخذت نفساً عميقاً، وأدركت، فجأة، أنها كانت قد حبست أنفاسها، وأن أعصابها توترت والحرارة سرت في كيانها. حتى إذا ما عادت إلى الغرفة مضطربة، أقفلت الباب من يدها فانصفق بعنف.

ـ هل أنت بخير، يا سارا؟

ظهر الاهتمام في صوت إيرين فجعلها تتخلص من السحر الذي أسرها. وارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة، أدركت معها صعوبة التصرف بشكل طبيعي.

قالت وهي تلقي على تريشا نظرة تحمل معنى خفياً:

ـ أنا بخير، شكراً.

ضحكت إيرين، وهي تركز انتباهها على المريضة بعد أن اطمأنت إلى حسن سير الأمور. ودنت منها سارا لتساعدها آملة أن تتمكن من ذلك.

هنالك خطأ ما . . . أمر غير عادي يحدث لها . وقد بدأ ذلك منذ رأت نيال جيلسبي للمرة الأولى . ويزداد هذا الأمر سوءاً يوماً بعد يوم .

* * *

ـ إنه صبي ، يا تريشا . طفل جميل . هل تريدين حمله؟

وأنهت سارا ربط سرّة الطفل ثم قدمته إلى أمه .

ـ آه ، لا ! ألا ترينه لزجاً ومنتفخاً؟

وأغمضت تريشا عينيها وكأن منظر طفلها أثار اشمئزازها .

شعرت سارا برغبة مفاجئة في الإمساك بها وهزها بعنف ، لكنها سيطرت على شعورها هذا . إن الولادة تؤثر في كل امرأة ، ومن الخطأ أن تُدين تريشا وهي في هذه الحالة من الإنهاك وتوتر الأعصاب .

لو كان معها أحد أثناء المخاض لأفادها ذلك ، ولكن سارا لم ترَ أيّ شخص معها منذ أحضرتها سيارة الإسعاف . مما جعلها تتساءل عن مكان والد الطفل ، وعمّا إذا كانا منفصلين . وهل هذا يفسّر موقف تريشا من الطفل؟

تنهدت لهذه الفكرة ، ثم حملت الطفل إلى الطاولة وأجرت له الفحوصات اللازمة ، من وزن وقياس وطول ومحيط الرأس وسجلت التفاصيل في ملفه ، فيما راح هو يتأملها برزانة المواليد الجدد ، وكأنه عرف كل هذا من قبل .

ابتسمت سارا وهي تتحدث إليه برقة ، ولاحظت محاولاته للتركيز على وجهها . وكانت قد أعدّت حوضاً مليئاً بماء دافىء لتحممه ، فضحكت حين رأت وجهه يتغضن بعد أن غمرته بالماء برفق . وراحت تكلّمه برقة :

ـ هيا ، يا حبيبي . أنت تحب ذلك ، فهو أشبه برجوعك إلى بطن أمك .

فقالت إيرين من خلفها :

ـ ربما أحسن . تخيليه مرتبطاً بها لمدة تسعة أشهر .

فقالت سارا مؤنبة ، وهي تكتم ضحكتها :

ـ هل هذه طريقة مناسبة للحديث عن الأم الجديدة؟

فتنهدت إيرين وأجابت :

ـ آه ، لا . لكنها الحقيقة . لقد خطر في بالي مراراً أن أصفع تلك السيدة الشابة ، لا سيما عندما رأيت الطفل الرائع الذي أنجبته .

ـ بعض النساء يتلهفن للحصول على طفل في صحة جيدة مثله .

وأخفضت صوتها إلى حد الهمس وهي تضيف :

ـ وضعت جويس بيننغ جنينها . وقد حضر الدكتور جيلسبي خصيصاً ليكون بجانبها .

سألتها سارا بهدوء :

ـ هل هما بخير؟ أعني جويس والطفل سام؟

ـ بألف خير . سمعت أن المخاض لم يكن سهلاً ولكنك تعرفين جويس ، فقد تغلبت على ذلك . وطلبت هي وزوجها ، أن ينفردا بالطفل لبعض الوقت قبل أخذه لاجراء الإختبارات اللازمة .

ـ وهل وافق نيا . . . الدكتور جيلسبي على ذلك؟

صححت سارا كلامها ، وحاولت أن تتجاهل النظرة التي رمقتها بها إيرين .

ـ نعم ، لماذا؟ تبدو عليك الدهشة؟

هزت سارا كتفيها ، وقالت :

ـ آه ، لا شيء . لكنه ، في أول يوم عمل له هنا ، عنفني لأنني لم ألتزم بالتعليمات حرفياً قبل أن أعطي الطفل لأمه . . أعني بالنسبة إلى الوزن والقياس وغيره . . ويدهشني أنه سمح لجويس بذلك .

فضحكت إيرين وردت:

ـ استناداً إلى معرفتي بك، أتصور أنك شرحت له وجهة نظرك في هذا الموضوع. ولعلك حاولت إقناعه بها.

ابتعدت إيرين عندما أخذت تريشا تنادي من سريرها بكآبة، طالبة جرعة ماء. فأنهت سارا غسل الطفل، محاولة تجاهل الزهو الذي شعرت به لاحتمال أن نيال أخذ بوجهة نظرها..

تنهدت وهي تجفف الطفل بحذر، ثم وضعت حول معصمه وكاحله بطاقة تحدد هويته، من تراها تخدع؟ إذا قرر نيال أن يخالف القوانين المتبعة في هذه الحالة، فالسبب يعود إلى حالة جويس الخاصة، ولا علاقة لها هي، سارا هاريس، بالأمر.

* * *

ـ إنه رائع الجمال، يا جويس.

مرّرت جويس أنمُلتها على خد سام. فتجاوب للمستها وأدار رأسه نحوها وقد رفع عينيه إلى أعلى، يفتش بنهم عن الطعام.

ـ همم... إنه يعرف ما يريده، أليس كذلك؟

وضحكت جويس وهي ترفعه من سريره وتقبل رأسه الأشقر. كانت إعاقته واضحة في انحراف عينيه وتسطح قسمات وجهه، لكن سارا أدركت أن أمه اعتادت هذه الفكرة أثناء حملها.

كانت جويس شديدة الاهتمام بصحة سام لأنه منغولي. فهؤلاء الأطفال يعانون من مشاكل مختلفة، في القلب وفي تكوين الإمعاء. لذا تلهّفت سارا لمعرفة نتيجة الاختبارات، فسألتها، عندما فتحت قميص نومها لإرضاعه:

ـ كيف حاله، يا جويس؟

ـ بأحسن حال. عاد الدكتور جيلسبي منذ وقت قصير ليعلمني بأن

كل شيء طبيعي، من الناحية الجسدية على الأقل.

وابتسمت جويس وهي تضع سام على صدرها لإرضاعه.

ـ هذا حسن. لا بد أن هذا الأمر قد أراحك.

ـ نعم. فقد كنت أنا ورالف، قلقين للغاية.

وتنهدت جويس وهي تتأمل سام الذي راح يرضع بنهم. وتابعت تقول:

ـ قد يظهر العيب لاحقاً فلعله أصم، كمعظم الأطفال أمثاله. كما لا نعرف إلى أيّ مستوى يمكنه أن يتعلم.

قالت لها سارا مشجعة:

ـ شَهِدت طرق تعليم أمثال سام من الأطفال تقدما ملحوظاً.

والتفتت حين سمعت الباب يُفتح، وشعرت بدم حار يتدفق في عروقها حين رأت نيال في الباب.

ـ هذا بالضبط ما قاله الدكتور جيلسبي.

وضحكت جويس وهي تنقّل نظرها بين سارا والرجل الطويل الواقف في الباب ثم أضافت:

ـ أتراكما متفقين على ذلك؟

فقال نيال باسماً وهو يتقدم نحو السرير، رامقاً سارا بنظرة ممازحة:

ـ لا أدري ماذا تعنين، يا جويس. ما الذي أقحمتني فيه، يا سارا؟

ـ كنت أخبر جويس بأن طرق تعليم الأطفال المنغوليين قد تطورت بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة.

وارتجفت قليلاً، محاولة تجاهل البهجة التي تملكتها حين يتحدث إليها بلهجته الدافئة تلك، وتابعت تقول: «ويبدو أنك قلت لها الشيء نفسه.

رد بهدوء: «هذا صحيح».

وابتسم لها وهو يضيف:

ـ فكرة واحدة في رأسين، أليس كذلك؟

أدركت أن ما دار بينهما مجرد حديث قصير، لكن، مع ذلك، شعرت وكأنهما يتشاركان لحظة ذات دلالة عميقة.

ضحك وأضاف وهو يلتفت إلى جويس قائلاً:

ـ هناك طرق عديدة اليوم لمساعدة الأطفال المنغوليين على إكمال حياتهم بشكل طبيعي.

لم تسمع سارا جواب جويس. فقد اعتذرت بسرعة وخرجت من الغرفة، باذلة جهدها للسيطرة على شعورها بخيبة الأمل الذي كاد يسحقها. ماذا جرى لها؟ ولِمَ هذا الشعور بالإحباط الذي تملكها لأن نيال لم يعنِ شيئاً بتلك الملاحظة؟ هل كان يقول الشيء نفسه لأيّ زميل له.

ـ أتراني قلت شيئاً أزعجك، يا سارا؟

استدارت بسرعة عندما سمعت صوت نيال خلفها. كان الممر معتماً بعد أن خففت الأنوار بسبب الدوام الليلي، وتساءلت عما إذا كان هذا السبب الذي جعلها عاجزة عن قراءة تعابير وجهه.

ـ لا. طبعاً لا.

وضحكت ضحكة رنانة متوترة بحيث لم تكن مقنعة، فرأته يقطب حاجبيه.

ـ اسمعي يا سارا. إذا كان هناك...

وسكت فجأة عندما توقف المصعد وخرج منه ممرض يدفع العربة التي استلقت عليها تريشا، بغية نقلها إلى القسم. وتنبّهت سارا لنظرة التأمل التي بدت على وجه صديقتها حين رأتها مع نيال، ولم تستطع احتمال التفكير في الأسئلة التي ستطرحها عليها لاحقاً! فقالت بسرعة:

ـ أنا... عليّ أن أذهب. عليّ أن أطمئن إلى أرييل قبل أن أعود إلى الطابق السفلي، إذ يبدو أن الكثير من العمل ينتظرنا الليلة.

لم يحاول نيال أن يستبقيها وهي تسرع مبتعدة. ولكن لماذا يفعل ذلك؟ طرحت على نفسها هذا السؤال ساخرة، فإنجازها لعملها بكفاءة هو كل ما يهمه.

وقفت خارج الغرفة حيث خصصت لأرييل ممرضة على مدار الأربع وعشرين ساعة. تنبهّت إلى أن التفكير في نيال سبّب لها بعض الألم وقررت التوقف عن ذلك. فقد بذلت ما يكفي من الجهد، للبحث في أعماق نفسها بما عقدت العزم عليه سابقاً، أي تركيز تفكيرها على عملها.

لسوء حظها صادفت نيال الليلة، لكن كان عليها أن تدرك حقيقة الأمور... فنيال جيلسبي زميلها في العمل فقط لا غير. ومدّت يدها تدير مقبض الباب وهي تتمنى لو تقتنع بكل ذلك!

رفعت الممرضة المخصصة للسهر على أرييل، رأسها عند دخول سارا، وهمست قائلة:

ـ هل جئت لفحص مريضتنا؟

ـ نعم، كيف حالها؟

أجابتها سارا همساً لئلا تزعج المريضة النائمة، ثم أمسكت بملفها ولم تتفاجأ حين رأت أنها لا تزال تعطى حقن الڤاليوم في الوريد منذ يومين للحد من تأثير الإرجاج.

ـ هذا حسن. إنها أفضل حالاً مما توقعته لها، عندما رأيتها للمرة الأولى. كانت الطفلة المسكينة في حالة يرثى لها حينذاك. لكن ضغطها جيد، ولم تعد تنتابها نوبات التشنج.

فتثاءبت الممرضة ثم ضحكت، وقالت:

ـ في الواقع، لقد أعجبني العمل هنا. إذا احتجتم إلى ممرضة خاصة مجدداً، فضعوني في رأس القائمة! لقد دهشت حين اتصلوا بي. فأنا أعرف الميزانية المحددة لهذا الغرض، وكلفة الممرضة الخاصة مرتفعة جداً والشخص الذي أقنع الإدارة بدفع أجرة ممرضة من الوكالة، شخص غير عادي دون شك.

أومأت سارا، وقد حارت بالجواب، ثم أعادت وضع الملف على حافة السرير وخرجت من الغرفة. نظرت إلى الممر فلم تر أثراً لنيال. وتنهدت بعمق وهي تفكر في ما قالته الممرضة عن غير قصد. كان كلامها صحيحاً، فنيال جيلسبي شخص غير عادي في الواقع، وهذا جزء من مشكلتها.

* * *

هتفت سارا بحيرة وهي ترى الفتى السائر في الممر:

ـ كدت لا أعرفك.

كانت في طريقها إلى غرفة الممرضات عندما رأت جيسون صديق أريبل. وقفت تطيل النظر إليه ولم تستطع منع نفسها من التعجّب للتغيير البادي عليه بعدما اغتسل وارتدى ملابس نظيفة، فلم يعد ذاك الفتى الرث المظهر الذي رأته منذ بضعة أيام. كما اختفى ذلك الشعر الأشعث المتشابك الخصلات وحلّ مكانه هالة من الشعر الجعد البني الفاتح مضفية عليه مظهراً ملائكياً غريباً. أما الأوشام والقرطان في أذنيه فبدا وكأنه عاجز عن التخلص منها.

ومع ذلك، كان هذا تحسناً كبيراً يعكس استعداده للقيام بأيّ تغيير كي يتمكن من رؤية أريبل وابنته.

سألته سارا وهي تسير إلى جانبه في الممر:

ـ ماذا تفعل هنا في هذا الوقت الباكر؟ لن تتمكن من رؤية أريبل الآن

فهل جئت لترى «ستار»؟

فقال بابتسامة عريضة ممزوجة بشيء من الخجل، وكأن تبدل مظهره يزعجه:

ـ نعم. لقد سمحوا لي بحملها في الأمس، لدقيقة واحدة فقط. وقالوا لي إنني إذا ما جئت اليوم باكراً فقد يسمحون لي بإطعامها.

فقالت سارا مشجعة:

ـ هذا حسن. إن وجودك مفيد جداً لتحسّن صحة ستار. لقد اطمأننت عليها أثناء الليل، فأخبرتني الممرضات أن صحتها في تحسّن مستمر.

ووقفت خارج غرفة العناية الفائقة لتتأمل من خلال الزجاج الأطفال المرضى، وكان عددهم خمسة. كانت ستار في حاضنة قرب النافذة فابتسمت سارا وهي ترى مدى تحسن مظهرها.

ففي الأيام الأولى، كانت ستار تتغذى من خلال أنابيب وضعت في أنفها، وها هو جلدها قد فقد احمراره وأصبح لونه طبيعياً تقريباً لأنها اكتسبت بعض الوزن. كما أصبحت تتنفس الأوكسجين بانتظام عبر أنابيب دقيقة في أنفها. ولم تكن ترتدي سوى حفاض وقد لفت بمنشفة لتحفظ حرارة جسمها ووضعت على رأسها قلنسوة، رأت سارا من تحت طرفها خصلة شعر حمراء فضحكت مسرورة، وسألت:

ـ ممن ورثت ابنتك الشعر الأحمر؟

فرد باختصار: «من أمي».

ـ وهل تعلم بأمر ستار؟

ـ لا. فهي لن تهتم بذلك.

بدا التمرد في عينيه لكنه لم يستطع إخفاء ألمه، حين أضاف:

ـ لم تعد تهتم بكل ما أفعله منذ تزوجت من جديد.

وابتسم لها بتوتر ثم توجه إلى الجرس يقرعه.

تنهدت سارا وهي ترى الممرضة تدخله إلى الغرفة، ثم تابعت طريقها في الممر. تباً لمثل هذه الأم إذا ما صح كلام جيسون! فهي لا تستطيع العيش بعيداً عن أسرتها بهذا الشكل، وبالرغم من أن والديها يعيشان في الطرف الآخر من البلاد، إلا أنها واثقة من أنهما سيساندانها حالما يشعران بحاجتها إليهما...

شهقت حين اصطدمت بجسد رجل صلب، وأمسكت يدان قويتان بكتفيها على الفور: «هل أنت بخير؟».

— ـ أظن ذلك...

وأخذت نفساً عميقاً، لكن هذا المقدار من الهواء لم يكفها، لأنها بكل بساطة تحدق في وجه نيال جيلسبي القلق. ووجدت نفسها تتساءل عما إذا كان على الأرض كلها ما يكفي من الهواء ليهدّىء أعصابها وأنفاسها المتسارعة.

راح قلبها يتخبط بين ضلوعها، وهي تجاهد لتتمالك نفسها.

— قالت: «آسفة... لم أرك».

ـ هذا ما لاحظته.

ارتجفت سارا إذ سرت القشعريرة في جسمها بعد أن أمسكها من كتفيها. وأدركت على الفور أن نيال شعر بردة فعلها إذ رفع يديه عنها فجأة. ثم سألها بصوت بعث الاضطراب في نفسها.

ـ أظنك ستغادرين الآن بعد أن أنهيت عملك؟

— ـ ن... نعم. كانت ليلة حافلة، وأنا أتطلع بشوق إلى سريري في البيت.

وحاولت أن تبتسم مضيفة:

— ـ آسفة على اصطدامي بك بهذا الشكل. يجب أن أنتبه لخطواتي في

المستقبل.

فقال بفروغ صبر، وقد ظهر على وجهه تعبير غريب:

ـ اسمعي يا سارا، أنا...

ـ سارا! هذا رائع. لقد أدركتك.

سكت نيال فجأة حين رأى مايك متجهاً نحوهما بسرعة. ولاحظت سارا أن وجهه عاد ليكتسي قناعه المعتاد. وما إن وصل مايك حتى أخذ ينقل نظراته بينهما، متردداً:

ـ عفواً، لم أقصد قطع حديثكما، لكنني كنت أتساءل عما إذا كنت تريدين أن أقلّك إلى بيتك، يا سارا.

— ـ نعم، شكراً يا مايك. هذا عظيم.

استطاعت، بشكل ما، أن تحافظ على هدوء صوتها، لكن نبضات قلبها تسارعت بعنف. رمقت نيال بنظرة سريعة، متسائلة عما كان سيقوله قبل هذه المقاطعة. لكن ملامحه الجامدة لم تفصح عن أيّ شيء وهو يعتذر منهما بهدوء ليتركهما وحيدين.

ـ هل أنت جاهزة؟ إذا كانت ليلتك متعبة كليلتي، فلا بد أنك متلهفة للوصول إلى بيتك.

— ـ هذا صحيح. هيا بنا، إذن.

وضع مايك ذراعه حول كتفيها واتجها نحو باب الخروج، وتقبلت هي مزاحه البريء هذا. فالحديث بينهما سينقطع حالما يركبان الدراجة النارية. وعندما انطلقت بهما الدراجة في شوارع المدينة أغمضت عينيها وهي تتساءل مرة أخرى عما كان نيال سيقوله...

وتنهدت متعبة، وقد أدركت أنها عادت إلى ما كانت عليه من قبل، فصممت على أن تتوقف عن التفكير فيه طوال الوقت.

* * *

٦ ـ عندما ينطفىء الحلم . .

لم تستطع سارا أن تنام رغم إرهاقها . استلقت في سريرها وراحت تتقلب لأكثر من ساعة، قبل أن تعود وتنهض ثانياً، إذ لم تجد فائدة من محاولة النوم وذهنها مشغول . ولعل نزهة قصيرة سيراً على الأقدام تغيرها .

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل عندما خرجت لتسير في الطريق المؤدي إلى النهر . توجهت نحو الحديقة العامة الصغيرة وملعب الأطفال الذي كان خالياً في تلك الساعة . جلست على أرجوحة هناك، وأخذت تتأرجح ببطء وقد اكتشفت أن هذه الحركة اراحت أعصابها . أغمضت عينيها وزادت من سرعة الأرجوحة، وابتسمت فيما الهواء يعبث بشعرها .

لعلها متوترة الأعصاب وتحتاج إلى إجازة، فقد أمضت وقتاً طويلاً في العمل ولم تخرج للترفيه عن نفسها بأمور بسيطة كالتأرجح مثلاً . عندما كانت تنتهي من عملها، كانت تملأ أوقات فراغها بمهمات جادة . ولم تعد تتذكر متى أمضت يوماً كاملاً دون أن تفعل شيئاً، فلا عجب أن تشعر بالإرهاق .

زادت من سرعة الأرجوحة وهي تفكر في ما عليها أن تفعله في الإجازة . ربما ستتمشى أو تسبح، أو تستلقي طوال النهار لتقرأ وتشرب القهوة . . .

زادت من سرعة الأرجوحة بعد أن أسعدتها هذه الأفكار . تمسكت بالسلاسل بقوة وقد شعرت وكأنها عصفور يحلّق في الجو . وضحكت بصوت عال، إذ أثار هذا التفسير الذي وجدته لتصرفاتها الغريبة مؤخراً ارتياحها . إنها تحتاج إلى عطلة، وهذا كل ما في الأمر .

ـ إن لم تنتبهي ستصلين إلى الشمس، وعندها ستحترق أجنحتك .

أعادتها إلى الواقع تلك اللهجة المازحة وفاجأها ذلك الصوت العميق .

فتحت عينيها ونظرت إلى نيال جيلسبي مذهولة، فرأته يستند إلى أحد أعمدة الأرجوحة وقد ارتسم على وجهه تعبير جعل قلبها يخفق بعنف .

أوقفت الأرجوحة وراحت تبحث جاهدة لتجد ما تقوله، إنما استحال عليها ذلك . وعجزت عن الكلام حتى تنبّهت إلى أنه يمسك بأدير، فسألته وقد جفّ حلقها :

ـ هل . . . هل ستطيّرها؟

ـ نعم .

ونظر إلى الطائر فخيّل إلى سارا أن في صوته خشونة لم تلاحظها قبل لحظات، ظهرت وهو يقول :

ـ لم أستطع أن أنام ففكرت في أن أتمشّى قليلاً في الهواء الطلق .

ونظر إليها وقد تألقت عيناه الخضراوان، وهو يضيف :

ـ وهل عجزت عن النوم أنت أيضاً، يا سارا؟

ـ لـ . . . لا .

تجنّبت عينيه وهي تنزلق عن الأرجوحة، مطلقة ضحكة قصيرة لتخفي بها أحاسيسها، وأضافت :

ـ لا أدري لماذا، فقد كنت متعبة للغاية .

ـ أعرف ما تعنين.

وتنهّد نيال تنهيدة عميقة، ثم سوّى غطاء رأس الطائر الجلدي قبل أن يعود وينظر إليها. وبدا الإنهاك جلياً في عينيه وهو يقول:

ـ أحياناً يكون المرء مرهقاً للغاية ومع ذلك لا يستطيع طرد الأفكار التي تزعجه من ذهنه.

وصفت هذه الكلمات شعورها بدقة، ومع ذلك أحست بأنه يلمّح إلى أمر آخر ألا وهو عجزهما عن النوم. شدّت على أصابعها وهي تتساءل عما يعنيه، وتلهفت إلى أن تسأله، لكنها خافت من ردة فعل سلبية:

ـ تبدو فلسفة غريبة. أليس كذلك؟

وضحك برقة وكأنه يلطف الجوّ. ثم أكمل:

ـ كما أن هذا الصباح أجمل من أن نضيّعه سدى. هل تودّين مرافقتي وتجربة قدرتك على تطيير هذه السيدة الصغيرة؟

ـ أنا؟ آه، لكنني لا أستطيع! عليّ حقاً أن أعود...

سكتت وقد شعرت برجفة تتملكها حين رأت الدفء يختفي فجأة عن وجهه.

ـ المعذرة. لن أستبقيك أكثر من ذلك. لا بد أن داوسن يتساءل أين عساك تكونين.

ـ أين عساي أكون..؟

وشعرت سارا بوجهها يشحب، عندما فهمت فجأة ما يعنيه، وقالت بسرعة:

ـ آه، لقد أقلّني مايك إلى بيتي وحسب. ليس... ليس بيننا...

وسكتت حين أدركت الورطة التي ستوقع نفسها فيها إذا ما تابعت كلامها.

ـ فهمت.. يبدو أن استنتاجي خاطىء.

وكان صوت نيال من الاتزان بحيث نسب القشعريرة التي تملكتها إلى الإرتباك.

أتراه ظن حقاً أنها ومايك عشيقان؟ أخذت تتساءل عن هذه المسألة وهي ترتجف. ثم أدركت، بقلب منقبض، أن المظاهر قد تكون خدّاعة، لكنها، على أي حال، لا ترضى بتصرف كهذا، لا سيما أنها تعتبر مايك مجرد صديق لها... وشعرت أنها عاجزة عن شرح كل هذا لنيال في تلك اللحظة.

ـ حسناً، يجب أن أعود إلى المنزل، الكثير من العمل...

وعضت على شفتها وهي تراه يرفع حاجبيه، فأدركت، دون أن تنظر إلى عينيه، مدى ضعف حجتها. فلو كانت نائمة، كما يفترض بها أن تفعل، لما تمكّنت من القيام بكل هذه الأعمال الهامة. وحاولت التفكير في عذر أكثر إقناعاً، فلم تجده. عندها، قالت مكرهة:

ـ يمكن للعمل أن ينتظر.

ـ هل أعتبر ذلك موافقة منك؟ هل ستأتين؟ تعالي يا سارا. احزمي أمرك.

وضحك حين لاحظ ترددها وقال مداعباً:

ـ أطمئنك إلى أن سمعتك ستكون في أمان لأننا لن نكون وحيدين.

ـ لن نكون وحيدين؟

رددت ذلك ببلادة وهي تنظر إليه مشوشة الذهن واضطرب قلبها حين رأت ابتسامته التي أنارت وجهه فجعلته يبدو، فجأة، أصغر سناً وأكثر وسامة.

راحت نبضات قلبها تتسارع وهي تلحظ بعض الأمور الأخرى. فقد استبدل بذلة العمل الرسمية بملابس بسيطة، كما فعلت هي، وارتدى بنطلوناً من الجينز وكنزة تبنية اللون. ولم تُسىء ملابسه البسيطة

إلى جاذبيته، وفكرت بقنوط أن ما من شيء يسيء إليها.

أدركت أنها تحدق فيه دون أن تتمكن من تحويل عينيها عن جسمه الرياضي القوي. ثم رفعت عينيها إلى كتفيه العريضتين. ولاحظت أنه لم يحلق ذقنه قبل أن يخرج فبدا مظهره مهملاً، لا سيما مع تلك الخصلة المتدلية على جبينه.

وكان هذا وجهاً آخر لنيال جيلسبي، الذي أحاطت به هالة من الرجولة البدائية، بعد أن نزع عنه تلك البذلة الأنيقة وربطة العنق المميزة وتخلى عن مظهره المتحفظ، فأيقظ فيها مشاعر خطرة أخافتها. ولم تحوّل نظراتها عنه إلا بعد أن رأته يتأملها مطولاً. ولم تستطع ضبط الرعشة التي سرت في جسمها وهي تسمعه يقول ممازحاً:

ـ ستكون أدير حارستك، يا سارا. صدقيني. لن تشعري بالأمان مع أحد بقدر ما ستشعرين معها.

ـ لم أتصور لحظة...

وسكتت حين ضغط بإصبعه على شفتيها، ورمقتها عيناه بنظرة باردة برودة النهر الجاري قربهما، ولكن ابتسامته كانت حنونة بحيث أشاعت الدفء في كيانها.

ـ كنت أمازحك، يا سارا... فهل سترافقينني؟ أرجوك، أنا واثق من أنك ستستمتعين بذلك. وليس هناك ما هو أحب إلى قلبي من قضاء هذا الصباح الرائع معك ومع أدير.

وهل بإمكانها أن ترفض الآن؟

ـ لا بأس، سأرافقك وشكراً.

وابتسمت محاولة تجاهل أحاسيسها ومتسائلة باضطراب عن سبب تأثير نيال عليها بهذا الشكل.

شعرت بالراحة عندما التفت وأشار إلى النهر بمودّة غير متكلفة

هدّأت من مخاوفها. إنه صباح رائع، وتود فعلاً أن ترى أدير تطير. فلمَ ستفسر تلك الدعوة بأكثر مما تحمله من معنى؟

ـ سنتابع سيرنا على ضفاف النهر إذا كنت لا تمانعين. فهنالك موقع جيد يمكننا أن نستخدمه لتطير أدير منه. المكان ليس بعيداً من هنا.

ـ حسناً، هذا يناسبني.

سبقته إلى النهر، وسارت في الاتجاه الذي أشار إليه. بعد حين ضاق الطريق، وأحالت أغصان الأشجار المتدلية فوقهما أشعة الشمس إلى وهج مخضوضر. لم تعد تسمع خرير النهر، فشعرت وكأنهما أصبحا فجأة في عالم صغير خاص بهما.

تابعت سارا السير، وأحاسيسها ترافق ذاك الرجل السائر في أعقابها، ولعل السبب يعود إلى تزايد رهافة أحاسيسها. وبدا الشذا الحاد للطحالب والأعشاب التي تنبت بين الصخور أكثر حدة مما عهدته.

ترى ألاحظ نيال كل هذا هو أيضاً؟ أخذت تتساءل وهي ترتجف.. أتراه أصبح على غرارها يرى الأشياء بوضوح أكثر من السابق ويشمّها ويسمعها؟

ـ إذا استدرت نحو الشمال، بعد ذلك الدغل مباشرة، تجدين درباً يؤدي إلى التل، وهذه هي وجهتنا.

لم يحمل صوته جواباً على تساؤلاتها، ومع ذلك، أدركت أنه يشعر بكل ما تشعر به، فارتجفت وقد هزّها اكتشافها هذا.

ـ ها قد وصلنا.

ومدّ ذراعها ليلفت انتباهها إلى نسمة بين الأشجار.. كانت لمسة خفيفة ناعمة لكنها ألهبت أحاسيسها. سحبت نفساً عميقاً واستدارت نحو الدرب دون أن ترى أمامها. وفي نهايته كشفت الأشجار عن موقع عالٍ فسيح، فشقت سارا طريقها صعداً، متعمدة عدم رؤية يده الممدودة

لمساعدتها. ثم قفزت على العشب، وأرغمت نفسها على الابتسام وهي تلتفت إليه، فخفق قلبها بسرعة لأنها قرأت التعبير المرتسم على وجهه، ورأت ذاك الشوق الغريب الذي جعل الشرر يتطاير من عينيه.

سألته بصوت أبح وقد هزّها المنظر الممتد أمامها:

— ـ هنا، في الأعلى، أليس كذلك؟

وعادت لتحدّق إلى أعلى التل حيث التقت خضرة العشب بزرقة سماء أيلول، وحاولت السيطرة على عاصفة المشاعر المتخبطة في داخلها. أتراه حقاً نظر إليها بتلك الطريقة... بمثل ذاك.. الشوق؟

ـ نعم، فتيارات الهواء في هذا الموقع أقوى لبعده عن الأشجار. وبذلك ستتمكن أدير من الطيران على العلو الذي تريده.

كانت لهجته عادية. ولو كانا في ظروف أخرى لاعتبرت نفسها مخطئة في تفسير ما رأته على ملامحه.. لكن في هذه اللحظات، أنبأها حدسها أن كلماته البسيطة هي مجرد غطاء لمشاعره الحقيقية.

قد يتصرف نيال ببرودته المعتادة، لكنه يخفي تحت ذلك الثلج ناراً لاهبة! وصاح بها عقلها محذراً... الخطر.. الخطر..

ـ هل أنت قادمة، يا سارا؟

توقف والتفت إلى الوراء حين أدرك أنها لا تتبعه، فأخذت سارا نفساً عميقاً. كانت الشمس تسطع بقوة، فمنعتها من رؤية تعابير وجهه، لكن هذا لم يعد يهمها. إنها تعي ما رأته وسمعته، وأخافها هذا بعض الشيء لأنها تجهل كيف عليها أن تتصرف. فهل عليها أن تضع حداً لذلك منذ الآن، وأن تسير مبتعدة دون أن تنظر إلى الوراء. أتدير ظهرها للخطر؟ أليس هذا الطريق الصواب؟

نعم، إنه هو. لكن من المؤسف ألا تستطيع أن تسلك هذا الطريق، وألاّ تجد أحياناً حلاً آخر سوى القفز إلى جوف النار... وتخاطر

بالاحتراق!

* * *

ـ هناك، انظري فوق رؤوس تلك الأشجار... نعم!

هتفت سارا بابتهاج عندما حلّقت أدير فوق الأشجار. حبست أنفاسها وهي ترى الطائر يحوم فوق الرؤوس لينقض بعد ذلك نحو الأرض بخفة. وعندما ارتفع مجدداً، شهقت سارا لأنها لاحظت في مخالب أدير، فأرة أو ما شابه حملتها إلى الأجمة لتلتهمها.

قالت بصوت خافت:

— ـ ما أغرب هذا. كيف استطاعت أن تراها من ذلك العلوّ.

ـ لا أدري. هذا ما يحيّرني أنا أيضاً على الدوام.

وضحك نيال لحماستها وأضاف:

ـ إذاً، ألا يستحق هذا الأمر حضورك إلى هنا؟ وهل أنت نادمة على عدم عودتك للقيام بالأمور الجوهرية من غسيل وكيّ وغير ذلك؟

ضحكت للمرح الظاهر في صوته، وأجابته:

— ـ أبداً، فقد كان هذا رائعاً. لا أتذكر صباحاً استمتعت فيه هذا القدر.

ـ هذا حسن.

وابتسم لها ابتسامة عريضة أخيرة قبل أن يستدير لينادي الطائر ليعود إليه.

أخذت سارا تنظر إليهما مبتسمة. فما قالته كان صحيحاً، فقد أمضت ساعتين رائعتين، أحست خلالهما ببهجة عارمة، إذ لم يزعجها نيال بكلمة أو نظرة، إذا ما استثنت حقيقة أن وجوده قربها يوترها. وراحت تتساءل عما إذا بالغت في تفسير ما حدث.

نبذت هذه الفكرة من ذهنها عندما عاد ليضع الغطاء على رأس

الطائر ويستدير نحوها، قائلاً:

ـ حسناً، أظن أن من الأفضل أن نعود. عليّ أن أعاين مريضتين عصر هذا اليوم. لهذا لن أجرؤ على التغيّب عن المدرسة أكثر.

ضحكت، لكنها دهشت لما قاله، وسألته:

ـ أستعود إلى العمل الآن بعد أن أمضيت هناك الليل بطوله؟

هزّ كتفيه ثم سوّى وقفة أدير على ذراعه وأجابها وهو ينزل عن التل.

ـ ليس من العدل أن نهمل المرضى.

فقالت برقة:

ـ لكن ليس من العدل أيضاً أن تعمل ليلاً نهاراً. لا يمكنك أن تمضي حياتك كلها في العمل، يا نيال.

توقف قرب الدرجات وقد بان الاكتئاب فجأة على وجهه.

ـ عملي هو حياتي، يا سارا.

عبر الدرجات، ثم وقف ومد لها يد المساعدة. كان ذهنها مشغولاً بما يقول ولكن ما إن صعدت الدرجات حتى سقطت إلى الأمام.

ـ حذار.

حذّرها نيال صارخاً، لكن صرخته ضاعت بسبب الزعقة التي أطلقها الطائر حين انزلق من مكانه بعد أن مدّ نيال يديه ليمسك بسارا. ساعدها على النزول ثم انحنى ليتأمل وجهها المرتاع.

ـ هل أنت بخير؟ هل أصابك أيّ أذى؟

ـ نعم، أنا بخير، ولم أصب بأذى.

وضحكت ضحكة مرتجفة وقد تسارعت دقات قلبها رعباً.

حاولت أن تبتسم وهي تنظر إليه، لكن الابتسامة ما لبثت أن جمدت على شفتيها عندما تشابكت نظراتها مع نظرات نيال، وبدا وكأن العالم كله قد توقف عن الحركة. وسمعت صوتها ينطق باسمه دون أن تدرك،

فارتجفت تأثراً:

ـ نيال...

وحيست أنفاسها وهي ترى عينيه تظلمان المشاعر. وعندما انحنى نحوها علمت أنه سيعانقها فأغمضت عينيها ولم تحاول تجنب ذلك. لعلها علمت منذ البدء أن هذا سيحدث...

ضمها إلى صدره بمزيج من الصلابة والنعومة، فشعرت سارا بدوار وحاولت أن تحلل ما يحدث لها. لقد أخافها عناقه قليلاً إذ أدركت أن له القدرة على بعث الاضطراب في نفسها.

وصدرت عنها تمتمة باللغة الرقة، ولم تدرِ هي نفسها إن كانت تعبّر عن احتجاج أم عن سرور، وتساءلت عما إذا كان من الحكمة أن تترك العناق يطول... شعرت به يتوتر وقد أحس بتردّدها، وما كان منه إلاّ أن ابتعد عنها. وفي تلك اللحظة، أدركت أنها لم تشأ أن يفعل. لم تكن تريد أن ينتهي هذا العناق قبل أن يبدأ. لم تشأ أن يعذبها الندم بسبب ذكرى جزئية، إنما للذكرى كاملة رائعة تحفظها في قلبها إلى الأبد.

رفعت يدها وأمسكت برأسه من الخلف، ومررت أصابعها في شعره الحريري لتمنعه من الابتعاد عنها. وشعرت مجدداً بتردده، فشبثت به بقوة كي يضمها بين ذراعيه، كما شعرت، في أعماقها، بأنه يريد أن يفعل.

ـ آه، يا سارا!

بدا وكأن اسمها ينبض بحزنٍ حلوٍ مرّ، وهو يخرج من بين شفتيه، لكن لم يتسنَ لها الوقت لتحلل ما يكمن وراء هذا الحزن. فما لبثت أن شعرت بذراعيها حوله، وفقدت قدرتها على التفكير المنطقي.

بردت صرخة أدير الفاجئة السحر الذي تملكهما، وجعلت نبضات قلب سارا تتسارع. جمدت عيناها حين فتحتهما لتحدّق في عيني

نيال . . .

وعندما رأت العذاب في عينيه، سرت قشعريرة في جسمها، وسقطت يداها على جانبيها، وشعرت بالألم يعتصر قلبها. هل ندم نيال على معانقتها؟ أيمكن ذلك؟

قال لها بصوت خشن:

ـ آسف يا سارا. لم أتعمد أن يحدث هذا أبداً.

بدا الندم في صوته، مما جعلها تشكّك في مشاعره.

وأخذت نفساً مرتجفاً لتمنع نفسها من البكاء. لا لن تفعل، فتكفيها مذلة اعتذاره هذا وكأن . . . كأن ذاك العناق يبعث على الخزي، فلن تزيد إذلال نفسها بالبكاء.

ـ لا تقلق يا نيال. لا تدع هذا العناق يثير استياءك، فهو لا يستحق ذلك. ألا توافقني الرأي؟

هزت كتفيها دون اكتراث، وتساءلت أين عثرت على هذه القدرة على الكذب فيما قلبها ينسحق ويدمي؟

ومضت لحظة صمت، التمعت عيناه بعدها، وبدا فيهما غضب أذهلها. ثم استدار وتقدمها على الدرب دون أن ينطق بكلمة أخرى.

تبعته سارا بصمت دون أن تحاول فهم سبب غضبه. ما أهمية ذلك الآن؟ لقد أدركت حقيقة شعوره نحوها وهذا جلّ ما كانت تحتاج معرفته.

لقد ندم نيال على لحظة الضعف تلك لأنه ما زال يحب المرأة التي خذلته. فأسفت لأنها لم تفكر في ذلك قبل أن تعرّض نفسها لهذه المذلة الحقيقية، وتفضح مشاعرها وضعفها.

ـ ما الذي يجري هنا؟

طرحت سارا السؤال وهي تدخل إلى القسم، ونظرت حولها

لتستوعب الموقف. كانت جويس دينغ جاثمة على سريرها، تبكي وتهز سام. وراح الطفل ينوح بصوت عالٍ، وقد شعر بحزن أمه كما يفعل الأطفال غالباً.

وضعت سارا يديها على وركيها واستدارت نحو الأمهات الأخريات وقالت:

ـ حسناً. إنني أنتظر. أريد أن أعرف ما يجري.

وأجابت تريشا حين رفضت أيّ من المرأتين الأخريين الكلام.

ـ ماذا يجري برأيك؟ لا نريد أن يصاب أطفالنا بالعدوى! لايحق لكم أن تضعوه هنا بين أطفالنا الطبيعيين.

تريّثت سارا قبل أن تجيبها. . فربما هناك عذر لمثل هذا التعصب، لكن لا يمكنها أن تتقبله أبداً. ونظرت شزراً إلى كل امرأة بدورها، قبل أن تعود وتلتفت إلى تريشا التي تكهنت بأنها المحرضة على هذه الثورة.

ـ سام طفل منغولي. وهي حالة غير معدية، ولا يشكّل أيّ خطر على غيره من الأطفال في هذا القسم أو في غيره.

قالت تريشا:

ـ هذا ما تقولينه أنت. إن وضع هذا الطفل هنا جريمة. هذا ما قاله «غاري» الليلة الماضية. وقال إنه سيعالج هذه المسألة حتى وإن عارضت أنت ذلك، فهو لا يقبل بوضع طفل معاق مع ابنه.

التفتت سارا نحو جويس المسكينة فما هو شعور المرأة التي تواجه هذا النوع من التعصب؟ وعادت تنظر إلى تريشا التي بدا على ملامحها كل ما عانته من غضب وإحباط منذ الصباح:

ـ لا يمكنني إلاّ أن أكرر ما سبق أن قلته لك. . لا خطر على أيّ من الأطفال في هذا القسم. يعاني سام من اختلال وراثي وهذا ليس ناتجاً عن مرض، ولذا فهو لا يعدي. مفهوم؟

واستدارت لتنظر إلى جويس، وتقول لها:

ـ لَمَ لا تأتين معي، يا جويس؟ سأعدّ لك كوباً من الشاي. دعيني أحمل سام عنك.

ـ لا.

وتشبثت جويس بالطفل، ثم وقفت ونظرت في أنحاء الغرفة قبل أن تسير نحو الباب دون أن تضيف أيّ كلمة أخرى.

تبعتها سارا، وقد سرّها أن ترى الخجل بادياً على وجه المرأتين الأخريين. هذا ما ينبغي أن يحصل، ولا عذر لمثل هذا التصرف في عصرنا الحالي.

ـ اجلسي يا جويس ريثما أضع إبريق الشاي على النار.

وقادت جويس برفق إلى كرسي في غرفة الممرضات، ثم جلست بقربها تحضّر الشاي.

فرحت حين رأت المرأة تتمالك نفسها، ووضعت سارا الكوب على منضدة قربها وهي تبتسم لها مشجعة، وقالت:

ـ لم يفهمن الأمر، جويس، مع أن هذا ليس عذراً، أليس كذلك؟

ـ آه! لا أدري.

وحاولت جويس أن تبتسم ثم أضافت:

ـ أظن أنه من الطبيعي أن يقلقن. وهذا مضحك لأنني كنت أعلم أن هذا قد يحدث، ومع ذلك تأثرت حين أخذت تريشا تتأفف من وجودي معهن.

ـ لقد أدركت أنها المحرّضة. ولا يمكنني سوى الاعتذار. لو كان لدينا أدنى فكرة عما نخطط له، لما وضعناها معك في القسم نفسه.

ـ الذنب ليس ذنبك يا سارا، ولا ذنب تريشا كما أظن. لقد أثار هذه المشكلة الشاب المدعو «غاري». لقد رأيته ينظر إلى سام شزراً عندما

جاء لزيارتها في الليلة الماضية. وكان واضحاً، حينذاك، أنه يخطط لشيء ما. أظن أنه عليّ أن أعتاد على الأمر.

وتنهدت الأم وهي تمرجح يدها على وجنة سام المتوهجة وأكملت:

ـ يطلق الناس التعليقات على الدوام عليّ أن أتعود على ذلك، وألا أتأثر. فسام إبننا رغم إعاقته ونحن نحبه جداً.

وقفت سارا وقالت:

ـ هذا هو المهم إذن. والآن، ماذا نفعل؟ هل تريدين البقاء في ذلك القسم يا جويس؟ أم تفضلين الانتقال إلى قسم آخر؟

ـ جزء مني يريد مني أن أبقى هناك إذ لا أريد أن يساورهن الظن بأنني أخجل بسام، بينما الجزء الآخر يأبى التعرّض لمزيد من الاستياء.

ـ دعيني إذن أهتم بأمر نقلك. فهذا أفضل لك ولسام على المدى الطويل. ولست بحاجة إلى الشعور بالاستياء حالياً.

تركت جويس تنهي كوب الشاي، وذهبت للبحث عن إيرين لتطلعها على ما حدث. وعندما قصّت عليها ما حصل، هزّت إيرين رأسها بعدم تصديق، وقالت:

ـ هل تصدقين أن هناك أشخاصاً بهذا الجهل؟ مسكينة جويس، أظنها على حق حين قالت إن السبب هو صديق تريشا ذاك. فإحدى العاملات في قسم الجراحة النسائية قالت الليلة إنه سيء الطباع للغاية. وهذا واضح فهو ترك تريشا عندما كانت حاملاً في شهرها السادس، وراح يخرج مع فتاة أخرى، كما قيل لي. ولكن هذه العلاقة لم تدم، فقد تخلت عنه تلك المرأة بعد أن اكتشفت سوء طباعه. ولهذا عاد إلى تريشا.

فتنهدت سارا، وعلّقت:

ـ ولهذا توافق على كل ما يقول. فهي في حاجة ماسة إليه، مما يجعلها تفعل كل ما يسره.

ـ هذا محتمل جداً، ومع ذلك، لا يفيدنا. فأنا أحاول تأمين مكان أنقل جويس إليه. لقد استقبلنا خمس حالات جديدة عصر اليوم. وهناك امرأتان في قسم التوليد حالياً.

فضحكت سارا، وقالت:

ـ إنها تخمة حقيقية بالأطفال. وهم يولدون دوماً في أيلول.

ضحكت الاثنتان. وأخيراً، قالت إيرين:

ـ ماذا لو وضعنا جويس مع أرييل؟ فقد تحسنت حالتها كثيراً وأشك في أن يحدث ذلك أيّ مشاكل. وهو السرير الوحيد الخالي حالياً. لا أريد وضع جويس في قسم آخر لتثار هذه القضية مجدداً، وتحدث تريشا المزيد من المشاكل.

ـ فقالت سارا: «تبدو فكرة صائبة».

ـ عليّ أولاً أن أناقش الفكرة مع الدكتور جيلسبي الذي ما يزال في مكتبه لذا سأتصل به، إلا إذا شئت أن تفعلي ذلك بنفسك.

ابتعدت عنها سارا خشية أن تفضح مشاعرها. ففكرة التحدّث إلى نيال، مرة أخرى، بعد كل ما حدث هذا الصباح فاقت قدرتها على الاحتمال.

ـ فأجابت متصنعة المرح: «سأترك لك هذا الشرف يا إيرين. الآن سأذهب وأتحدث إلى جويس وأطلعها على فكرتنا».

تركت إيرين لتجري اتصالها، لكن فكرة العمل مع نيال في الأسابيع التالية أقلقتها. قد ينسى هو عناقهما ذاك، لكن هل ستستطيع هي ذلك؟ ورفعت يدها تتلمس وجهها، وقد أحست بطعم الدموع على وجنتيها، فانقبض قلبها.

لن يكون من السهل عليها أن تنساه.

* * *

٧ ـ البداية

ـ هذه آخر ليلة لنا، وعندما سنعود إلى العمل، ستكون تريشا جاكسون قد رحلت. فيا للروعة!

ضحك الجميع. أما سارا فأعادت فرشاتها إلى حقيبتها وابتعدت عن المرآة حيث كانت تمشط شعرها قبل توجهها إلى العمل.

ـ لقد رأيت «آن باكستر» عند دخولي فأخبرتني أن بعض المشاكل قد حدثت في قسم تريشا عصر اليوم. يبدو أو «غاري» الشهير راح يصرخ ويتوعد. لم أعرف الأسباب لأن «آن» كانت مشغولة.

تنهدت إيرين وهي تعلق سترتها، وقالت:

ـ نعم. لقد سمعت بالأمر أنا أيضاً. رفض «غاري» وجود رجل مولّد في القسم فأخذ يصيح ويطلق الشتائم.

قالت سارا:

ـ ما زال هناك أشخاص لا يتقبلون فكرة وجود رجل مولّد، ومع ذلك لا يهتمون مثقال ذرة عندما يعالج زوجاتهم أطباء رجالاً. أظن أن التغلب على تحاملهم هذا يتطلب سنوات. وهذا شيء مؤسف حقاً، لأنك لن تجدي من هو أرق وألطف من «ديف تيرنر». والنساء اللاتي يولّدهن لا يبخلن بالثناء عليه، على أيّ حال ماذا حصل في النهاية؟ ومن استطاع حلّ الأمور؟

فأجابت إيرين:

ـ نيال جيلسبي. لقد عنّف غاري بشكل لا يُنسى.

فقالت سالي بمكر:

ـ هذا المدعو غاري مزعج جداً. والحمد لله أن الدكتور جيلسبي موجود، ولكن متى لم يكن موجوداً؟ إنه لا يغادر المستشفى، صباحاً، ظهراً، ليلاً... يبدو أنه بحاجة إلى امرأة تحوّل ذهنه عن العمل بحنانها وحبها وعنايتها... ولا تظني أنني ألمّح إلى أيّ شيء، يا سارا.

وضحكت الممرضات وما لبثن أن خرجن معاً ورافقتهن سارا، لئلا تتنبه الأخريات إلى المشاعر التي أثارتها فيها تلك الفكرة. لقد بيّن لها نيال جيلسبي بوضوح أنه لا يأبه لمشاعر الحب والحنان والرعاية التي يمكنها أن تمنحه إياها.

ولكن، لحسن الحظ، لم يكن لديها الوقت الكافي لتفكّر في هذا الأمر، إذ دخلت القسم مريضتان في الوقت نفسه تقريباً. ولم تكن حالة المرأتين تبشر بالخير، نظراً لصعوبة حالتهما. وكانت «مينا بيتل» في العمل فالتفتت بذعر، وقالت:

ـ لا يمكنني أن أصدّق أن حالتين مماثلتين تحصلان في الوقت نفسه. مظهر «هانا جارفيس» لا يعجبني أبداً، فهي تنزف كثيراً. سأخضعها لفحص دم شامل لأعرف ما بها.

قالت سارا:

ـ لا يوجد أحد في قسم الأشعة أثناء الليل. إنه وضع غير مقبول. أعني أن الحالات الطارئة لا تحدث فقط أثناء النهار. نحن بحاجة لإجراء الفحوصات على مدى أربع وعشرين ساعة.

فقالت مينا: «أعلم ذلك. إنها مسألة ينبغي النظر فيها. ربما يمكن لنيال أن يعالجها. إنه في مكتبه، يمكنك الاتصال به وشرح الموقف له، يا سارا. كما أريد أن تبقى «هانا جارفيس» هادئة على أمل أن تستقر حالتها

مع أنني أشك في ذلك. أما بالنسبة إلى المريضة التي أحضرتها «ديلدري روبرتس»، فأظن أن لا مناص من إجراء عملية قيصرية، فوضعية الطفل غير طبيعية وقد فقدت ماء الرأس منذ مدة. إن الطفل لديها قوي ولكن يبدو أن الحالة ستتقدم، ولا أريد المجازفة بالضغط على حبل الخلاص لئلا أقطع عنه الأوكسيجين بعد أن جفّ السائل الذي يحميه».

ـ طبعاً.

حافظت سارا على ثبات صوتها بينما هرعت مينا مبتعدة. وتنهدت وهي تدخل المكتب لتجري الاتصال. ما كانت في ظروف أخرى لتتردد. لكنها شعرت بالاضطراب لأنها مضطرة للتحدث إلى نيال.

رفع السماعة على الفور، وشعرت بقلبها يقفز ألماً وهي تسمع صوته: «جيلسبي».

فقالت بحذر لتلا يلاحظ مدى الصعوبة التي تلاقيها في الكلام:

ـ أنا الممرضة هاريس. طلبت مني الدكتورة بيتل أن أتصل بك. لديها مريضة مهددة بالإجهاض، وترى الطبيبة أن علينا إجراء فحص دم شامل.

ـ وهل هناك مشكلة في ذلك؟

كان صوته حيادياً جيداً، فتساءلت عما إذا كان يتذكر عناقهما على ضفة النهر منذ أيام. ولا بد أن فكره لم ينشغل بهذا الأمر مثلها، فشلّدت هذه الفكرة من عزيمتها، وأجابت بأدب وبرودة:

ـ قسم الأشعة لا يعمل ليلاً يا دكتور جيلسبي.

ـ لا بد أن هناك تدبيراً احتياطياً لهذا النوع من الطوارئ.

وبدا الغضب في صوته، لأن لديه مريضة في خطر، وعمله يفرض عليه الاهتمام بمرضاه... وهو يبذل في سبيل عمله كل ما في وسعه. ألم يقل لها قبل أن يعانقها إن عمله هو حياته؟ وقد بدأت سارا تفهم الآن ما

كان يعنيه.

— فقالت بهدوء: «أعتقد أن بإمكاننا استدعاء فني الأشعة عند الضرورة القصوى. مع أن هذا مرفوض من قبل الإدارة لارتفاع كلفته».

ـ فلتذهب الكلفة إلى الجحيم. وما فائدة المعدات إن كنا لا نستخدمها عند الحاجة.

أظهر صوته عاطفة دفينة جياشة، فأغمضت سارا عينيها. فكم تمنت لو يظهر بعض هذه العاطفة في حياته الخاصة! فيا ليته يهدم الحواجز، لتتمكّن من إقناعه بأن الحب ليس بالضرورة تجربة مؤلمة!

ـ سارا.. أما زلت معي على الخط؟

غمرت السعادة قلبها حين لاحظت الاهتمام في صوته، لكنها ما لبثت أن تذكرت أن سبب اهتمامه هذا يعود إلى أنهما لم يجدا حلاً بعد لهذه المسألة.

ابتلت أهدابها بالدموع، لكنها أرغمت نفسها على التركيز على ما يقوله وليس على ما تريد أن تسمعه، وقالت له:

— ـ نعم، طبعاً. ماذا تريد مني أن أفعل، يا دكتور؟

بقي صامتاً للحظة وكأنما أحس بكآبتها فحيّره أمرها. ثم جاء صوته واضحاً، مهنياً بارداً ليثبت لها أن أمرها ثانوي مقارنة مع أمر مريضاته:

ـ سأحلّ هذا الموضوع بنفسي أيتها الممرضة. قولي للدكتورة «بيتيل» إنني سأتخذ الترتيبات اللازمة. شكراً.

قطع الخط، فوضعت السماعة ببطء وبقلب مثقل. وبدا لها أن كل شيء قد قيل وانتهى.

* * *

— ـ اهدئي... يا هانا. لا بأس عليك، كل شيء سيكون على ما

يرام، يا حبيبتي.

وجلست سارا على حافة السرير، تضم الفتاة بين ذراعيها. وجدت نفسها عاجزة أمام حزن هانا جارڤيس، فجلّ ما استطاعت أن تفعله هو أن تخفف عن الفتاة قدر إمكانها، وكان هذا قليلاً للغاية في نظرها.

أثبت فحص الأشعة أن هانا قد فقدت جنينها. لكن، لسوء الحظ، بقي جزء كبير من المشيمة في الرحم بعد الإجهاض، ويجب إخراجها الآن بأسرع ما يمكن ليتم تجنّب أيّ مضاعفات.

— ـ هيا، امسحي عينيك.

وناولت سارا المرأة الباكية منديلاً ورقياً، والتفتت حين سمعت الباب ينفتح، ثم حوّلت عينيها على الفور عند رؤية نيال.

تقدم إلى السرير مباشرة ووقف ينظر إلى هانا بعطف بالغ، قائلاً:

ـ أنا آسف، يا هانا، كنت أتمنى أن نفعل شيئاً لمساعدتك، لكن الأوان كان قد فات.

أجابت الفتاة والدموع لا تزال تنهمر من عينيها:

— ـ أعرف هذا. أخبروني بأن الطفل... مات.

فقال برقة فائقة:

ـ هذا صحيح. والآن علينا تنظيف الرحم من بقايا المشيمة. سنعطيك مخدراً ولن تشعري بشيء.

ـ هل حدث هذا بسبب شيء قمت به يا دكتور؟ لقد ذهبت للسباحة اليوم فهل هذا هو السبب؟

وبدا على ملامحها الحزن والشعور بالذنب وهي تضيف:

ـ ظننت أن هذا سيفيدني ويقوّيني.

فأجابها نيال بهدوء:

ـ لا. كان هذا سوء حظ وحسب، يا هانا. أمر لا يمكننا التحكّم

به، للأسف.

ظهر الإعياء في صوته، فألقت سارا عليه نظرة سريعة، متسائلة عن ومضة الألم التي ارتسمت للحظة على ملامحه. كانت تعرف مدى تعلقه مع مريضاته، لكن هذا التأثر بدا شخصياً...

تخلّصت من تلك الفكرة الغريبة، وعادت بفكرها إلى ما يجري مصممة على التركيز عليه. ووجّه نيال الحديث إليها قائلاً:

ـ ستتوجه هانا على الفور إلى غرفة العمليات. سأقوم بالعملية بنفسي وأريد منك أن تساعديني، يا أخت هاريس، من فضلك.

ـ بكل تأكيد.

واحتضنت سارا هانا للمرة الأخيرة مشجعة، ثم وقفت وقالت:

ـ سأجهز كل شيء.

ـ شكراً.

وغادر نيال الغرفة، تاركاً إياها لتعدّ المريضة للعملية. كانت المهمة سهلة، لكن سبب قيامها بها كان أكثر إيلاماً.

وصل «كريس»، زوج هانا، قبل دخولها إلى غرفة العمليات مباشرة، وقد كان في رحلة عمل، فعاد مسرعاً عندما اتصلت به هانا في فندقه. تركتهما سارا وحيدين للحظات ليخفف أحدهما عن الآخر الحزن الناجم عن فقدان الطفل. أما هي فلم تستطع الاعتياد يوماً على الجانب المأساوي الحزين من عملها.

توجهت إلى مكتبها لتحضّر ملف هانا ولتمنحهما فرصة الاختلاء ببعضهما بعضاً. وعندما فتحت الباب دهشت لوجود «ديدري روبرتس» وهي قابلة خارجية، هناك. نظرة وحيدة إلى وجه ديدري جعلتها تدرك أن خطأً ما قد حدث. وتمنت ألا يكون الأمر متعلقاً بالمرأة الحامل التي أحضرتها ديدري منذ بعض الوقت، تلك التي كانت وضعية طفلها غير

طبيعية.

أغلقت الباب ثم سألتها: «هل أنت بخير، يا ديدري؟».

فأجابت هذه مكشرة: «هذا هو المفروض. على الأقل ما زلت كما أنا!».

ـ ماذا تعنين؟

ـ إنه الدكتور جيلسبي. لقد اتهمني بعدم الكفاءة.

وحاولت ديدري أن تبتسم، لكن سارا لاحظت أنها مستاءة، ولا عجب من ذلك.

اعتمد مستشفى «دالفرستن» كغيره من المستشفيات نظاماً يسمح للقابلات الخارجيات بإحضار مريضاتهن إلى المستشفى للتوليد فقط. فتمضي الأم بضع ساعات في المستشفى لتعود بعد ذلك إلى بيتها. إذا ما كانت والطفل بصحة جيدة.

وكانت سارا قد قابلت ديدري مرات عدة من قبل، بحكم هذا النظام، وقد أعجبت بعملها. ولم تستطع أن تفهم سبب هذا الاتهام الذي وجّهه نيال لها، فسألتها باضطراب:

ـ وما الذي جعله يقول ذلك، يا ديدري؟

ـ «أنجيلا موراي» التي أحضرتها. كنت أعرف حالتها، لكن الدكتور جيلسبي لم يمنحني الفرصة لأشرح له وضعها بدقة. بل أخذ يتكلم بطريقته الحادة تلك. ولو كلّمني بغضب لكان ذلك أفضل.

فهمت سارا ما عنته بكلامها. إذ لم يمضِ وقت طويل على معاملة نيال لها بمثل هذا الاستياء الجليدي...

وتحوّل فكرها فجأة إلى تلك اللحظات على ضفاف النهر حين عانقها بعاطفة محمومة. وقتذاك لم يكن بارداً.

ـ ماذا حدث إذن، الليلة؟ هل كنت تعلمين أن الطفل سيولد

بعجيزته؟

ـ نعم. وقد شرحت لأنجيلا أنّ عليها أن تنتقل إلى المستشفى، رغم أنها تفضّل الولادة في البيت. ربما كان عليّ أن أصمت وافاجئها بالخبر، عند ذلك ما كنا لنواجه هذه المشكلة.

فضحكت سارا، وقالت:

ـ يبدو هذا عنيفاً نوعاً ما. هل أفهم من ذلك أن السيدة موراي لم تكن تريد الحضور إلى المستشفى؟

فتأوهت ديدري، وأجابت:

ـ هذا تلطيف للواقع. فقد أمضت وقتاً مريعاً في المستشفى عندما أنجبت طفلها الأول. فذاك الذي قصدته لا يقيم وزناً لرغبات الأم، بل ينفذ الأمور وفقاً للنظام المفروض ودون سؤال. هذه المرة، أرادت أن تلد في البيت، ولم يكن هناك من مشكلة، حتى أدركنا أن وضعية الطفل مقلوبة.

ـ وهل حاولتم أن تديروا الطفل؟

ـ نعم، في الأسبوع الماضي، حاول الطبيب ذلك. لكن الطفل عاد إلى وضعيته السابقة بعد ذلك بساعات. عند ذلك، قلت لأنجلا إن عليها أن تأتي إلى المستشفى وإنها لن تمكث فيها سوى بضع ساعات لكنها لم تكن سعيدة بذلك، ولهذا لم تتصل بي الليلة إلا بعد أن فقدت ماء الرأس.. ربما ظنت أنه كلما اقترب موعد الولادة، كلما أمكنها أن تبقى في بيتها. وعلى أيّ حال، عندما رأيتها أدركت أن الطفل في محنة، لذا أحضرتها إلى هنا في أسرع وقت ممكن.

ـ لقد فعلت كل ما بوسعك، يا ديدري: فأنت ما كنت لتعلمي أنها ستقدم على مثل هذه الحماقة.

ـ أعرف هذا! لكن الدكتور جيلسبي لم يعطني الفرصة لأشرح له ما

جرى. على أيّ حال، كانت النهاية جيدة، فقد أنجبت أنجيلا طفلة وهما معاً بخير، وأظن أن هذا هو الأهم.

ـ طبعاً.

وافقتها سارا وإن اعتبرت أنه من غير الإنصاف أن يعاملها نيال بهذه القسوة دون أن يكون الذنب ذنبها.

بعد خروج ديدري، جلست لتحضّر أوارق هانا. وحين أنهتها، توجهت إلى غرفة المريضة لترافقها إلى غرفة العمليات.

كان نيال يغسل يديه عندما دخلت مع «هانا» لرؤية طبيب البنج. وعندما دخلت إلى غرفة غسيل اليدين سألها بهدوء: «كيف حالها؟».

ـ لا بأس.

وراحت تغسل يديها وساعديها وتعقمهما قبل أن ترتدي ثوب الجراحة وهي تقول:

ـ لقد وصل زوجها، وسيحضر عمليتها حتى النهاية.

ـ هذا حسن. إنها بحاجة إلى من يساندها حالياً. وأظن أنه علينا أن نقدم لهما النصح إذا أرادا ذلك. فقد نساعدهما على التغلب على حزنهما.

ـ طبعاً. هناك نظام جيد وضعه الدكتور هندرسون، يقدم الدعم في حالات كهذه.

وترددت سارا وهي تتساءل عما إذا كان عليها أن تذكر له مدى انزعاج ديدري روبرتس. ويبدو أنه تكهن بأن هنالك ما يزعجها، إذ سألها:

ـ هل هناك ما تودّين قوله؟

وعندما لم تجب على الفور، رفع حاجبيه وأضاف:

ـ هيا، انطقي يا سارا. لعلك ممرضة ممتازة، لكنك لا تحسنين إخفاء شعورك.

إحمر وجهها، ولم يَرُقها أن يقرأ أفكارها، فحوّلت عينيها عنه، قائلة:

ـ ديدري روبرتس منزعجة جداً بسبب ما قلته لها. ويبدو أنك لم تمنحها الفرصة لتشرح لك الوضع بدقة.

فرّد بخشونة:

ـ وماذا هناك لتشرحه؟ فما من عذر لتعريض المريض للخطر.

قالت بحدة وقد أزعجها رفضه الاستماع إليها:

ـ هذا ليس عدلاً. كانت أنجيلا موراي تعلم أن وضعية طفلها غير صحيحة، ومع ذلك أصرّت على عدم الحضور إلى المستشفى ولم تتصل بديدري إلا بعد أن فقدت مياه الرأس، فلم تستطع ديدري القيام بشيء حيال هذا الأمر.

ـ وهذا دليل آخر على أنه لا ينبغي تشجيع الحوامل على الولادة في بيوتهن. وما الفائدة من هذه المخاطرة التي لا ضرورة لها؟

واستدار متجهماً إلى غرفة العمليات فوضع بذلك حدّاً لهذا الحديث.

تبعته ببطء، متسائلة عما يجعله متصلب الرأي بهذا الشكل. وتنهدت بكآبة حين استقرت نظراتها على رأسه من الخلف. كانت تشعر بأنه لن يخبرها حتى وإن سألته، فهذا يعني أنها تجتاز الحدود التي أشادها بينه وبين العالم.

* * *

ـ حسناً، لقد فعلتها أخيراً! وسأصبح في العشرين من أيلول، امرأة حرة.

ألقت سارا المجلة من يدها، حين دخلت إيرين غرفة الممرضات وهي تعلن ذلك. كانت ترتاح قليلاً، فرفعت حاجبيها تنظر إلى صديقتها

وقالت:

ـ أعترف أن كلامك يحتاج إلى بعض التفسير، تعالي وفسّريه لي..

فقالت إيرين ضاحكة:

ـ آه، هذا سهل. لقد قدمت استقالتي لتوّي... أو بالأحرى تركتها على الصينية أمام الرئيسة، إيلين روبرتس، لتراها في الصباح. لم آخذ إجازة هذه السنة، مما يعني أنه بإمكاني الرحيل بعد أسبوعين.

فقالت «سالي غرين» وهي تتمطى:

ـ يا لك من محظوظة.

فردت إيرين: «سأمضي النهار بكسل، ولن يكون عليّ أن أتعامل مع أناس كتريشا... آه، يا للبهجة!».

فضحكت سارا وعلّقت:

ـ أنت تعلمين أنك تعشقين كل دقيقة تمضينها هنا يا إيرين. على أيّ حال، إذا كان هذا ما تريدينه، فحسناً فعلت. لكننا لن نتركك ترحلين دون وداع، ولهذا سنقيم لك حفلة أو ما شابه.

فقالت إيرين بانتصار:

ـ لقد وضعت برنامجاً. ما رأيكن لو ذهبنا إلى بلدة «دلفرستون» لحضور موكب المشاعل السنوية؟ يقيمونه عادة في ثاني أو ثالث سبت من شهر أيلول. وهو توقيت مناسب، وبعد ذلك سنعود إلى بيتي للاحتفال!

أجابت هيلين بلسان الجميع:

ـ هذا رائع. لقد سمعت عن «موكب المشاعل» لكنني لم أره قط.

فقالت سارا: «أنت لا تعرفين ما فاتك. لم أحضره سوى مرة واحدة، وهو رائع وستعشقينه».

قالت إيرين مشيرة إلى حبيب هيلين: «نعم، وكذلك «بوب»».

ثم أضافت: «أحضريه معك أيضاً، فالجميع مدعوّ...».

وسكتت فجأة ثم ابتسمت وهي تنظر إلى الباب وتقول:

ـ مرحباً يا دكتور جيلسبي. لم ألاحظ وجودك. كنا نتحدث عن حفلة تقاعدي.

ـ إذن فقد اتخذت قرارك يا إيرين؟ سنفتقدك كثيراً.

سمّرت سارا عينيها على بقايا الشاي في فنجانها وحاولت تجاهل الرعشة التي تملكتها لوجود نيال في الغرفة. لم ترفع بصرها حتى وهي تسمع خطواته تدنو منها. وأحست به حين وقف خلفها وإن لم يلمسها، فتسارعت نبضات قلبها حتى آلمتها. ولكن يا لحماقة تصرفها! فنيال لا يهتم لأمرها حقاً، ولعل عناقه ذلك الصباح لم يكن سوى رغبة آنية للحظات قليلة، لم يشأ أن تفوته... كان نوعاً من الضلال المؤقت من طرفه. أما الحقيقة فهي أنه لا يكترث لأمرها شأنها في ذلك شأن كافة النساء... ما عدا تلك المرأة التي أذته في الصميم، وتركت بصماتها على قلبه.

ـ ماذا قررت للاحتفال بتقاعدك؟

كان في صوت نيال اهتمام ودود برّد جو التحفّظ الذي نشأ عن ظهوره المفاجيء.

فانبرت «سالي» تقول، بروحها المرحة المعتادة:

ـ اقترحت علينا إيرين الذهاب إلى «دلفرستون» لمشاهدة «موكب المشاعل» وبعد ذلك الذهاب إلى بيتها لتقيم لنا حفلة السنة.

ضحكن جميعاً وكذلك فعل نيال، وهو يريح يده على مسند كرسي سارا، مما جعل أصابعه تلمس أسفل عنقها. عضت على شفتها لتصدّ سيل النار الذي سرى في كيانها. إنما عجزت عن تجاهل تأثير لمسة أصابعه رغم علمها بأنه لا يقصدها.

ـ يبدو لي مشروعاً جيداً. هل الدعوة مفتوحة؟

كان صوته هادئاً، لكن سارا أحست بنبرة متوترة تختبيء وراء كلماته الرقيقة تلك. وتملكتها رغبة ملحة في النظر إليه، لكنها تمكنت من كبحها. فما الفائدة من النظر إلى شيء غير موجود؟

وأجابت إيرين على الفور:

ـ طبعاً. وآمل أن تحضر، يا دكتور جيلسبي. إذا لم تشاهد الموكب من قبل، فأعلمك أنه يستحق فعلاً الرحلة، وأهلاً وسهلاً بك في بيتي، فيما بعد، لحضور الحفلة.

ـ شكراً، وأقدّر لك دعوتك هذه.

ولم يضف أيّ كلمة أخرى، فلم تفهم سارا ما إذا قبل الدعوة أم لم يقبلها. واستقام في وقفته فشعرت ببرودة مفاجئة تنتابها بعد أن أبعد أصابعه.

ـ لن أفسد عليكم استراحتكم. على أيّ حال، أودّ أن أعلمكم أنني اعتذرت من ديدري روبرتس. وربما يعلم بعضكن أنني تسرعت قليلاً في انتقاد معالجتها لحالة أنجيلا موراي. وقد أدركت الآن أن اللوم لا يقع على ديدري، وأكّدت لها أني أثق بمهارتها المهنية ثقة مطلقة.

وابتسم لهن ابتسامة رقيقة ثم غادر الغرفة بهدوء كما دخل.

عبّرت سالي غرين عن دهشة الجميع بقولها:

ـ حسناً، هذا تغيير جدير بالتسجيل! ما كنت لأتوقع أبداً أن يعترف الدكتور جيلسبي بخطئه.

ثم تنهّدت بلهجة مسرحية وأضافت:

ـ أواه، لكنه أقرب إلى الكمال، أليس كذلك؟ إنه وسيم، يكرّس نفسه لعمله وجذاب للغاية... ما يجعلني أتمنى لو أنني لست متزوجة وسعيدة في زواجي.

ضحكن قبل أن يتابعن وضع الخطط لقضاء السهرة.

أصغت سارا إلى ثرثرتهن لكنها لم تشارك فيها. كان في جزء من قلبها شعاعٌ مريح دافىء. إذا ما تمكّن نيال من الاعتراف بخطئه فهذا يعني أنه غير ميؤوس منه كلياً. ولعله سيفهم أنه قد يكون مخطئاً أيضاً في حكمه على أمور أخرى، كرفضه إقامة علاقة حميمة مع أية امرأة، مرة أخرى...

ـ يبدو عليك الرضا، يا سارا هاريس. ما الذي تخططين له؟

ـ لا شيء.

وضحكت سارا، متجاهلة نظرة عدم التصديق التي رمقتها بها إيرين. لم تكن تكذب، إذ لم تضع خطة فعلية. وذلك الشعاع الخافت الدافىء لم يصل إلى هذا الحد، بعد. ولكنه أمر يستحق التفكير... إنه البداية وليس النهاية المحتومة.

* * *

٨ ـ وحدهما وسط الزحام

مرّت الليلة بهدوء تام، باستثناء حادثة غريبة نسبياً. كانت سارا تنقل مريضة إلى القسم في ساعات الصباح الأولى، بعد ولادة طبيعية.

وبعد أن أعطت تعليماتها تركت القسم وتوجهت نحو المكتب. كان أمامها نصف ساعة قبل أن ينتهي دوامها، وهو وقت كافٍ لكتابة التقرير الليلي والاستعداد لتسليم العمل إلى الممرضات الأخريات.

اعتادت إيرين أن تقوم بهذه المهمة، لكنها كانت منشغلة بولادة أخرى، فقررت سارا أن تتولى الأمر عنها. وكانت على وشك الدخول إلى المكتب عندما انفتح الباب من الداخل وبرزت تريشا.

تملكت سارا الدهشة للحظة، قبل أن تقول:

ـ ما الذي يجري، يا تريشا؟ ماذا تفعلين في المكتب؟ تعلمين أنه لا يسمح للمرضى بذلك دون أن ترافقهم ممرضة.

قالت تريشا بسرعة:

ـ آسفة.. كنت.. أريد أن أستعمل الهاتف.

وراحت تنظر إلى الممر المظلم متجنبة نظرات سارا.

ـ في هذا الوقت المبكر؟

لم تحاول سارا إخفاء عدم تصديقها. فدارت حول تريشا ونظرت جيداً في أنحاء الغرفة، ولكن كل شيء بدا منظماً. فالأوراق على المكتب كما هي، وخزانة المخدرات مقفلة دوماً كعادتها.

ألقت على المرأة نظرة أخرى فاحصة، وقد لاحظت عليها بعض الاضطراب. أتراه الشعور بالذنب لأنه ما كان عليها أن تدخل إلى المكتب مهما كانت الظروف؟ أم لأنها تكذب بالنسبة إلى سبب دخولها؟ وكان من المستحيل اكتشاف الحقيقة.

ـ اسمعي، أنا آسفة. ما كان عليّ أن أدخل. لكني أردت الاتصال «بغاري» وحسب.

وتابعت تقول بلهجة مشاكسة:

ـ أرأيت؟ لم ألمس أي شيء هنا.

فتنهدت سارا. كان «غاري» وراء كل هذا مرة أخرى، وإن لم يكن بشكل مباشر. ورأت أن لا فائدة من إحداث جلبة وإقلاق المريضات. فستخرج تريشا من المستشفى في اليوم التالي، وهكذا سيتخلصون منها، ومن غاري.

انتظرت إلى أن ذهبت تريشا إلى سريرها، ثم دخلت المكتب وأخذت تتفحص الأدراج والخزائن بدقة. لكنها لم تجد شيئاً مريباً. وبدا لها أن تريشا قالت الحقيقة، أما سبب حاجتها الماسة إلى الاتصال في مثل هذا الوقت، فقصة أخرى. وكانت قصة لم تشأ سارا سماعها، فقد رأت منهما ما يكفيها.

كتبت التقرير، وسلّمته إلى الممرضات العاملات نهاراً فور وصولهن ثم غادرت المستشفى متنهدة بارتياح. لم تأسف لانتهاء مناوبتها ليلاً لهذا الأسبوع، وتمنت أن تكون الأمور أسهل حين عودتها بعد أيام. ولم يكن العمل ليزعجها أبداً إنما أمر آخر مختلف تماماً... إنه رجل طويل القامة داكن الشعر ذو جاذبية مثيرة، ويدعى الدكتور جيلسبي إذا ما أردنا التحديد أكثر..!

***

وإذ قررت سارا أن تستمتع ببعض الراحة، وتخصص بعض الوقت لنفسها، قامت بأقل ما يمكنها من الأعمال المنزلية خلال أيام إجازتها الثلاثة. وأمضت وقتها في السباحة وقراءة الصحف، أو النزهات الطويلة سيراً على الأقدام.

قصدت النهر وسلكت الدرب الذي سارت فيه مع نيال ذلك الصباح. لكنها دهشت لعدم استمتاعها بذلك. أشياء كثيرة ذكّرتها بما حدث بينهما هناك، وأسئلة كثيرة تزاحمت في رأسها، لماذا عانقها نيال؟ أتراها كانت رغبة لم يستطع السيطرة عليه؟ وهل كان ذلك يحدث لو كانت برفقته امرأة أخرى وليس هي بالذات؟ وشعرت بالخوف من أن تكون هذه هي الحقيقة.

عادت إلى العمل وهو تشعر براحة أقل مما كانت ترجو. أما عزاؤها الوحيد فانشغال نيال باجتماعات العمل، حيث استحوذت قضية افتتاح وحدة جديدة في قسم الولادة على اهتمامه، وهكذا لم تكن معرّضة للقائه حيثما توجهت، لكنها ما لبثت أن أدركت بعد ساعات أنها اشتاقت إليه.

شعرت بالراحة عندما لاحظت أن حمّى العمل في القسم تتراجع، مما يتيح لها الوقت للتفكير. حضرت أمهات جديدات للولادة فتم إدخالهن إلى المستشفى، فيما خرجت أخريات. وغادرت تريشا وجويس دينغ التي افتقدها الجميع، لا سيما أرييل التي كانت تتماثل للشفاء. توجهت سارا إلى غرفتها قبل الغداء، فوجدتها تنظر من النافذة بكآبة. سألتها وقد لاحظت انقباضها:

ـ كيف حالك الآن؟

بدت أرييل كئيبة، فصممت، في ذهنها، على مناقشة موضوعها مع الدكتورة «مينا»، فالممرضات يعرفن سهولة انزلاق الأمهات إلى هاوية

الكآبة. ويعود ذلك جزئياً إلى التغيّر المفاجيء بعد الولادة، وإلى تغيّر الهرمونات. وكانت أريبل بحاجة إلى مراقبة ومتابعة، تحسباً لأيّ طارىء...

ـ لا بأس، كما أظن. سأمضي أسبوعاً آخر، على الأقل، قبل أن أتمكن من الخروج. هذا ما قالته لي الدكتورة بيتيل هذا الصباح.

وتنهّدت آريبل مجدداً قبل أن تعاود التحديق من النافذة وأضافت:

ـ أتمنى أن أحمل «ستار» معي، لكنها ما زالت غير قادرة على مغادرة العناية الفائقة.

قالت سارا تشجعها:

ـ إقامتها لن تطول، فصحّتها في تحسّن مستمر.

ـ أعلم ذلك. لم يكن لدي أدنى فكرة...

وعضت على شفتها عندما انهمرت الدموع من عينيها.

ـ يجب ألا تلومي نفسك. فهذا لن يفيدك.

وتقدمت نحو الفتاة تحتضنها وهي تضيف:

ـ عليك الاعتناء بنفسك لتصبحي قادرة على العناية بستار عندما تخرج من المستشفى.

ـ هذا ما قاله لي الدكتور جيلسبي أمس.

وبدا أن أريبل لم تلاحظ تصلب سارا عند ذكر هذا الاسم، إذ تابعت تقول:

ـ قال لي إن عليّ أن أهتم بنفسي من أجل ستار.

ـ وهو على صواب طبعاً.

وابتعدت سارا عن النافذة وأمسكت بلوح الملاحظات حول حالة آريبل، محاولة التركيز على ما دوّن عليه بدلاً من الاستماع إلى دقات قلبها التي تسارعت لمجرد ذكر اسم نيال جيلسبي.

كان ضغط دم آريبل طبيعياً، ولم يكن هناك ما يدل على أنها ستتعرض لمزيد من النوبات. بقيت الفتاة تحت المراقبة الشديدة خوفاً من إصابة كليتيها بأي تلف فأعراض الإرجاج تؤثر بشدة فيها. وقد أظهر فحص عينات البول والدم ضرورة هذا الاهتمام وجعل من الضروري إبقاء آريبل في المستشفى لمدة أطول بغية ملاحظة تطوّر حالتها.

وضعت لوحة الملاحظات من يدها ثم تقدمت نحو الفتاة تحيطها بذراعها وتقول:

ـ يجب أن تفكري بإيجابية وفي ما ستفعلينه بعد أن تغادري المستشفى. تعلمين أنه ليس من الحكمة أن تأخذي «ستار» إلى المخيم لأنها ستحتاج إلى عناية كبرى في الشهور الأولى. فهل قررت شيئاً ما؟ هل هناك من سيساعدك؟ أسرتك مثلاً؟

ـ لا. ليس لديّ أسرة. لقد نشأت في ملجأ.

مسحت آريبل دموعها بظاهر يدها وأكملت:

ـ لقد تناقشت مع جيسون في الأمر الليلة الماضية، وقررنا قبول عرض جويس حتى نجد مكاناً لنا. عرضت علينا أن نقيم معها عندما أخرج من المستشفى. فزوجها رالف يدير مصبغة وقد عرض على جاسون وظيفة معه. سيجرب ذلك على أيّ حال.

هتفت سارا، وهي تفكر في هذا الحظ الحسن:

ـ آه، هذا رائع.

لقد أثمر نقل جويس إلى غرفة آريبل أكثر مما توقعوا فقد أقامت المرأتان علاقة صداقة جيدة، وساعد على ذلك تقبّل آريبل لوضع سام دون تردد.

وعندما خرجت إلى الممر بعد دقائق، كانت لا تزال تبتسم. كان جميلاً أن ينتج عن تلك الحادثة السيئة أثر جيد. وعندما تجاوزت غرفة

الممرضات نظرت إلى ساعتها فتملكتها الدهشة لأنها أدركت أنه وقت الغداء. وكانت قد أحضرت معها شطائر ففكرت أن تأكلها في الحديقة فالطقس جميل.

وما إن استقرت على المقعد الخشبي حتى سمعت وقع خطوات خلفها. نظرت فكاد قلبها يتوقف عن الخفقان وهي ترى نيال. عندما رآها، توقف، وتردد للحظة قصيرة كانت كافية لكي تشعر بأنه لم يسرّ لرؤيتها هناك.

أخفضت بصرها وتظاهرت بانشغالها بلفافة الشطائر، فبذلك لا يضطر إلى محادثتها فقد بدا جلياً أنه يكره هذه الفكرة.

ـ سارا؟

كان في صوته مزيج من الاستفهام والمرح، سمّرت ناظريها على اللفافة في حجرها، وركزت على نزع الورق اللاصق عنها. لم تشأ أن تلتفت إلى تينك العينين الباردتين فترى ما تتوقع رؤيته...

ـ انظري إليّ يا سارا.

جاء صوته حازماً، ويده التي امتدت لترفع لفافة الشطائر عن ركبتيها جامدة كالصخرة.

ابتلعت غصة الألم في حلقها وهي تجاهد لتجد ما تقوله، فيجب أن تقول كلمة يفهم الدكتور نيال جيلسبي منها أنها لا تبالي بشعوره نحوها! وكانت على وشك النطق بكلمة باردة، حين امتدت تلك اليد الثابتة إلى ذقنها ورفعت وجهها لتقابل عينيه الباردتين الخضراوين... ولكنهما لم تكونا باردتين كما توقعت!

ساد بينهما صمت قصير شعرت معه سارا وكأن قلبها توقف عن الخفقان. وراحت تتساءل عن معنى تلك النظرة في عيني نيال. ثم، وقبل أن تستوعب ما يجري، أشاح نظره وأنزل يده إلى جانبه، تاركاً إياها

تتخبط في بحر الحرمان والألم.

ـ يتعلق الأمر بما جرى، ذاك اليوم، قرب النهر. أليس كذلك يا سارا؟

دفع بشعره إلى الخلف بصبر فارغ، ولم تتمكن من لومه على شعوره هذا. كان مجرد عناق وحسب. فلِمَ لا تنفكّ تحمّل المسألة أكثر مما ينبغي؟

وشرعت تقول: «لا أدري ما تعنيه..».

فقاطعها: «إياك.. إياك أن تكذبي عليّ يا سارا. فهذا ما لا أحتمله. وهو أهمّ شيء بنظري».

أهم شيء؟ ما الذي يعنيه؟ حدقت فيه ببلادة، وتأملت العذاب الذي بدا جلياً على ملامحه دون أن تفهم سببه. ثم هبّت واقفة فجأة، وقالت:

ـ أنا أعتذر، يا نيال.

بان الازدراء في صوتها لكنه، بالكاد، أخفى ألمها وهي تضيف:

ـ لم أدرك أنك ستشعر بهذا القدر من الذنب إزاء ما حدث.

ـ الذنب؟

وتقدّم نحوها قليلاً حتى كاد يصطدم بها. وعندما ردد ذلك السؤال، تنبّهت إلى ما قالته، وأدركت على الفور أنها لا تود الاستمرار في هذا الحديث.

سألها بخشونة:

ـ أشعر بالذنب؟ ما معنى ذلك بحق الجحيم؟

ـ لا شيء. انس ما قلته. أنا.. أنا لم أعن ذلك.

وحاولت أن تسير، لكنه أمسك بذراعيها وأدارها نحوه.

للحظة، مالت بجسدها نحوه، فشعرت بقوة جسمه ودفئه، لكنها سرعان ما اندفعت بعيدة عنه، وهرولت مسرعة نحو طريق الحديقة

الضيق. ناداها باسمها مرة واحدة، بصوت يكاد لا يعلو على صوت وقع خطواتها على الحصى، لكنها لم تتوقف.

ما الفائدة؟ وماذا ستقول له؟ أنها تشعر مثله بالأسف على ذاك العناق الذي وقع ذلك اليوم عند النهر؟

خنقت ضحكة مرة وهي تدخل المستشفى. سيكون ذلك كذباً! لقد قال لها إنه لا يريدها أن تكذب عليه، إنما لن تخبره أيضاً أن ذاك العناق أصبح هاجسها الوحيد وسيبقى كذلك. فلا بدّ أنه لا يود سماع هذه الحقيقة.

* * *

ـ حسناً، كل منكم يعرف ما عليه أن يفعله.

ونظرت إيرين إلى الجمع المحتشد وأضافت:

ـ علينا أن نشق طريقنا في هذا الجمع. وبعد أن يمر الموكب، سيعود كل منكم إلى سيرته عند... فلنقل عند الساعة العاشرة تقريباً.

قالت هيلين ضاحكة:

ـ لِمَ لا نضبط ساعاتنا على وقت واحد؟ فهكذا نصل في الوقت نفسه.

ـ يا لك من امرأة سليطة اللسان!

ومدّت أيرين يدها لتقرص أذنها، وضحكت حين تهرّبت صديقتها، ثم أضافت:

ـ إنني أحاول التأكد من أنكم ستحصلون على حصة عادلة من مقصف العشاء الذي أعددته. فأنا أعرفكم كلكم، تأخذون الأمور بالمزاح والتهكّم، وبعد ذلك لا تلومون سوى أنفسكم!

ضحك الجميع، وتوجّهوا نحو الطريق الذي سيمرّ به موكب المشاعل، والمؤدي إلى وسط مدينة «دالفرستون». دهشت سارا وهي ترى عدد المدعوين إلى حفلة تقاعد إيرين. ساد جو من الضحك والهزل بينهم

وهم يتجهون إلى مركز المدينة.

تمنّت لو تستطيع أن تتفاعل معهم، لكنها لم تحضر إلا خوفاً من استياء إيرين. فمنذ تلك المواجهة بينها وبين نيال، منذ أسبوعين، لم تعد تشعر بالحماسة حيال أي شيء.

ـ هل أنت واثقة من أنك بخير، يا عزيزتي سارا؟ هل هناك ما أثار اشمئزازك؟

ابتسمت وهي تلاحظ الاهتمام في صوت إيرين، وأجابت:

ـ لا، إنني منهكة وحسب.

ـ هل أنت واثقة من ذلك؟

والتفتت إيرين إلى الوراء، ثم لوّحت بيدها لزوجها الذي كان ينتظرها. عادت تتأمل سارا وتقطب جبينها قائلة:

ـ لقد لاحظت أنك هادئة جداً مؤخراً، فإن كان هناك ما يشغل بالك، فأخبريني... أنت تعلمين ذلك، أليس كذلك؟

ـ نعم، شكراً يا إيرين. وكما قلت لك، أظنني منهكة قليلاً. قد أطلب إجازة.

ـ فكرة حسنة. اقضي عطلتك في منطقة حارة حيث الشمس والبحر والرمال و...

ضحكت سارا، وقالت: «صورة جميلة».

لم تشأ أن تجعل إيرين تتكهن بمشاعرها، فالشخص الوحيد الذي يهمها أن تكون معه لا يريد حتى أن يشعر بوجودها.

نظرت حولها، بحثاً عن عذر للتهرب من مزيد من النصائح.

ـ آه! أنظري.. هذا مايك. سأكلّمه. أراك فيما بعد.

وأسرعت دون أن تنتظر جواب إيرين، لكنها ما إن غابت عن نظر صديقتها، حتى حوّلت وجهتها، فآخر ما كانت تريده هو أن تمضي

السهرة مع مايك لتشعر بمزيد من الذنب. وقد دعاها للخروج معه مرات عدة في الأسبوعين الأخيرين، لكنها رفضت الدعوة كل مرة. إذ لم يكن من الإنصاف أن تعطي مايك الأمل في شيء لن يكون.

وسرعان ما غابت بين الجموع المحتشدة للتفرج على الموكب والاشتراك فيه. رأت مشاعل من مختلف الأشكال والأحجام، بعضها معقّد التصميم، مما يجعل من الصعب على المرء أن يصدّق أنها مصنوعة من الخيزران أو خشب الصفصاف أو من مناديل ورقية بيضاء.

قصد الكثير من صبية القرية ورش العمل قبل موعد الموكب بأسابيع ليصنعوا مشاعلهم. وها هم يحملونها عالياً مزهوّين بها، والشموع في داخلها تلقي بوهجها نحو السماء المظلمة. ساد جوّ من الإثارة في كل مكان، لكن سارا شعرت بأنها بعيدة عن هذا الصخب. بدا وكأنها فقدت مؤخراً، قدرتها على الاستمتاع بحياتها. ولحسن الحظ، كان نيال مشغولاً جداً فاقتصر الوقت الذي أمضاه في قسم الولادة على الاستشارات.

وكانت قد ساعدته في كل عملية قيصرية أجراها، وجاهدت كي لا تظهر له مشاعرها على الإطلاق. ولا يعني هذا أنه ألمح إلى ما حدث لكنها، على أيّ حال، لم تمنحه الفرصة لذلك. فهي لم تشأ أن تثير موضوع ما عنته حين اتهمته بأنه يشعر بالذنب.

ـ سارا.. سارا!

وقفت في مكانها حين سمعت أحداً يناديها. والتفتت حولها لتبتسم وهي ترى «لورا» و«إيان» يتقدمان نحوها من بين الحشود. وما كادت تسلم عليهما، حتى شعرت بجسد صغير يرتمي عليها، فضحكت وهي ترفع «روبي» عالياً وتحتضنه، هاتفة:

ـ مرحباً، يا أشعة الشمس.

أخذت تقبله ضاحكة عندما احتضنها هو بشدة. وكان «روبي» يحب

كل من يتعرف إليه. أخذت لورا ابنها من بين ذراعي سارا، وهي تضحك وتقول:

ـ ستخنق سارا المسكينة بهذا الشكل. تعال، يا لها من تحية! لكنها تثبت أننا لم نرك منذ فترة طويلة. فماذا فعلت في هذه الأثناء؟

ـ آه، لا شيء يذكر. كيف حالك يا «إيان»؟

طرحت سارا سؤالها حين تقدّم نحوهم من بين الجموع. كان يحمل مشعلاً على طرف عصا طويلة، وعندما سألته عما يمثله، قطّب حاجبيه قائلاً:

ـ إنها سيارة. وقد صنعها روبي بنفسه.

ـ إنها جميلة. يا لك من صبي ماهر!

وضحكت وهي تعبث بشعر روبي، ثم جمدت شفتاها حين رأت الرجل القادم نحوها، من خلف أصدقائها. حدقت في نيال فاختفى كل من لورا وإيان والحشد كله...

أخذت نفساً عميقاً، فعاد كل شيء، فجأة، كما كان. وجه روبي الضاحك، تقطيبة لورا المستفهمة التي التفتت لترى ما الذي استرعى انتباه سارا..

قال نيال معتذراً:

ـ أرجو ألاّ أكون قد قاطعتكم. رأيت سارا صدفة، وأنا أحتاج إلى التحدث إليها، إن لم يكن لديكم مانع. بالمناسبة أنا نيال جيلسبي، المستشار الجديد في المستشفى.

فقال إيان وقد مدّ يده مصافحاً:

ـ تشرفنا بمعرفتك. أنا «إيان غريدي» وهذه زوجتي «لورا»، وهذا الشاب هو روبي.

ـ سمعت الكثير عن روبي في المستشفى.

وضحك نيال عندما ألقى روبي بنفسه بين ذراعيه على الفور، وحمل الطفل، قائلاً:

ـ مرحبا يا روبي، أنا نيال.

ـ نيا...

وأخذ روبي يجاهد ليلفظ الاسم الغريب، وقد سرّه أن يجد صديقاً جديداً. لم يتنبه للصمت القصير الذي ساد، لكن سارا أحست به بقوة. فالتفتت إلى لورا فأدهشتها النظرة المقطبة التي رمقت بها نيال. قالت لورا فجأة:

ـ لديّ شعور غريب بأنني رأيتك من قبل.

ثم ضحكت بارتباك وأضافت:

ـ من حسن الحظ أنني امرأة متزوجة وسعيدة بزواجي وإلا لفهمت الأمر خطأ.

فأجاب نيال باسماً:

ـ يا ليت! لكني واثق من أنني كنت لأتذكرك لو تعارفنا من قبل، يا لورا.

جاء رده مهذباً، لكن سارا لاحظت فيه توتراً مفاجئاً، مما أثار فضولها على الفور. ما الذي جرى لنيال؟ ولماذا انزعج حين ظنت لورا أنها تعرفه؟

ولم تجد الوقت الكافي لتحليل هذه الرموز، إذ التفت إليها وسألها:

ـ نسيت أن أسأل عن الوقت الذي سنجتمع فيه لنتوجه إلى منزل إيرين؟

فتمتمت وقد انقبض قلبها:

ـ الـ... العاشرة.

لم تعتقد أنه سيحضر الليلة. وفكرة أن تمضي السهرة معه، جعلتها

تسعى لإيجاد طريقة للهرب.

ـ أراك هناك إذن.

وابتسم لها ابتسامة باردة جامدة قبل أن يعيد روبي إلى والديه. لكن ظهر في ابتسامته تلك لمسة خفيفة من التحدي. وراحت تتأمله وهو يشق طريقه بين الجمع، متسائلة عما إذا كان هناك طريقة تتجنب بها حضور الحفلة...

قالت لورا متنهدة:

ـ أتمنى أن أتذكر أين رأيته من قبل. عندما ذكر اسمه بدا لي مألوفاً، لكنني لا أستطيع أن أتذكر وهذا ما يغيظني.

ضحك إيان وهو يقبّل وجنة زوجته، وقال:

ـ هممم... من حسن الحظ أنني لست رجلاً غيوراً، وإلا أقلقني اهتمامك بهذا الطبيب.

أجابت ببساطة تعكس سعادتهما:

ـ أنت تعلم أني لا أفكر في أحدسواك يا حبيبي.

ثم أضافت:

ـ ولكنني واثقة من أنني سأتذكر أين تعرّفت إلى نيال جيلسبي من قبل.

قال إيان:

ـ هذا ما يحدث عادة. فما إن أغمض عيني حتى توقظني بضربة من كوعها لتخبرني بما تذكرت لتوها. وبعد ذلك تنام هي قريرة العين فيما أبقى أنا مستيقظاً طوال الليل.

ضحكا، وشاركتهما سارا الضحك رغم حيرتها لما حدث للتو. كان تصرف نيال غريباً عندما ذكرت لورا أنهما تقابلا من قبل... لقد ترك الأمر يمر ببساطة لكنها شعرت بانزعاجه. ولم تجد فرصة لتعيد التفكير في

ذلك لأن روبي استرعى انتباههم، وطلب أن يحمل مشعله. . عندما بدأ الاستعراض، جابوا في المدينة، فرافقتهم سارا، وقد حمل روبي مشعله مزهواً به. وبعد ذلك أقيمت الألعاب النارية في الحديقة العامة فبقيت مع لورا وإيان لمشاهدتها، مع أن عقلها لم يكن يسجّل ما يجري إلا جزئياً، وراحت أفكارها تسبقها إلى الحفلة التي ستقام فيما بعد.

ترى هل سيثير نيال موضوع ما قالته في الحديقة ذلك اليوم؟ أم سيفضل تناسيه؟ لقد أشاع الاضطراب في نفسها منذ قابلته. وتنهدت وهي تنظر إلى صاروخ انطلق نحو السماء وانفجر ثريات من النجوم الحمراء والذهبية. يوماً ما، ستفهم سبب تأثير نيال فيها. . وتملّكها شعور بأن الجواب سيحمل معه الكثير من المشاكل.

استغرقت عودة سارا إلى حيث ركنت السيارات وقتاً طويلاً، فقد كانت الزحمة خانقة حتى استحال على المرء في بعض الأحيان، شق طريقه فيها. وأخيراً نجحت في ذلك، وهي لا تزال تفكّر في عذر تختلقه لئلا تذهب إلى منزل إيرين. إن قضاء الحفلة برفقة نيال هو ما ودّت تجنّبه في الوقت الحالي.

هتفت هيلين حين رأتها:

ـ كنا على وشك أن نفقد الأمل. تقدمتنا إيرين مع معظم المدعوين، لكننا قلنا إننا سنقلّك معنا.

وألقت هيلين نظرة ارتياب إلى مقعد السيارة القديمة الخلفي، ثم أضافت:

ـ ولكن المكان سيكون ضيقاً. جمعنا المزيد من الناس أثناء الاستعراض.

وشرعت سارا تقول، متمسكة بالفرصة التي سنحت لها:

ـ هذا غير مهم. اسمعي يا هيلين، لا أظن. . .

ـ سأقلّ بنفسي سارا وأي شخص آخر يحتاج إلى ذلك، طبعاً.

استدارت بسرعة عند سماعها صوت نيال، وفتحت فمها لترفض العرض، لكن هيلين سبقتها إلى القول:

ـ هذا عظيم! وسيسهّل الأمور كثيراً. وما من شخص آخر تقلّه لأننا ندبرنا أمرنا. إلى اللقاء هناك.

لوّحت هيلين بيدها بسرعة، وقفزت إلى سيارتها ثم صفقت الباب لتنطلق بهم السيارة. وحاولت سارا أن تفكر في شيء تقوله فلم تفلح، ولم تكن تستطيع أن ترفض عرضه دون عذر مناسب.

ـ جاهزة؟

فتح نيال باب سيارته وانتظرها، ولم يكن أمامها خيار آخر، فصعدت إلى جانبه. ساد الصمت بينهما في الأميال الأولى التي قطعاها قبل أن يتركا المدينة. وكان نيال يركز اهتمامه على الزحام أما سارا فكانت تحاول عدم التفكير في شيء معين. وفضّلت الجلوس صامتة، على أن تخاطر بقول ما لا ينبغي أن تقوله.

ـ اسمعي يا سارا، علينا أن نتفاهم على بعض الأمور، بدءاً مما حدث ذلك اليوم.

أجفلت حين اخترق صوته الصمت فجأة، وخفق قلبها بألم عندما سمعت ما قاله.

ـ ليس لدي فكرة عما تعنيه. . .

راحت تقول هذا، متلهفة إلى تجنب حديثه، لكنه قاطعها بفروغ صبر، وقال بخشونة:

ـ بل تعرفين. إنني مدين لك بتفسير. وربما كان عليّ أن أخبرك بذلك من قبل. . .

وسكت فجأة ثم انحنى إلى الأمام ليحدق من الزجاج قائلاً:

ـ ما هذا بحق الله . . ؟

ـ ماذا؟

وأجفلت سارا وراحت تحدق في الطريق أمامهما. كان الظلام حالكاً، بعد أن خلّفا المدينة وراءهما. ولم تكن الطريق مضاءة، ولم يكن يبدد الظلام سوى مصباحي سيارتهما. في البدء، لم تر شيئاً، لكنها ما لبثت أن لمحت ضوءاً صغيراً أصفر يتمايل بجنون وسط الطريق.

خفف نيال من سرعته، ثم ضغط بعنف على الكابح، وهو يتمتم شاتماً عندما ظهر رجل أمام نور سيارتهما. كان يحمل في يده مصباحاً كهربائياً وراح يلوّح به في الظلام، ثم اتجه نحو السيارة راكضاً حالما أوقفها نيال، وأخذ يتكلم بسرعة، وهو يلهث بشدة.

خرجت الكلمات متقطعة من فمه وهو يقول: «اخرج. . . ساعدنا . . إنها زوجتي».

فسأله نيال وهو يفتح الباب بسرعة:

ـ هل تعرضتما لحادث؟

ـ لا . لا .

وأخذ الرجل يعِبّ الهواء ويحاول أن يرغم الكلمات على الخروج من فمه مترابطة:

ـ ليس حادثاً، تمزقت عجلة السيارة، والعجلة الاحتياطية مفرغة من الهواء . وزوجتي تلد .

استدار وراح يركض عائداً نحو سيارته، وكأنه يتوقع منهما اللحاق به .

نظر نيال إلى سارا وهو يرفع حاجبيه بأسى:

ـ لِمَ يساورني الشعور بأن هذا يحصل عمداً؟

* * *

٩ ـ في عينيه . . . ندم!

ـ ماذا علينا أن نفعل؟ لا يمكن أن تلد جيني هنا على جانب الطريق.

ابتسم نيال ليطمئن الشاب الذي راح يدور حولهما بقلق.

ـ هذا الطفل آتٍ شئنا أم أبينا. لا تقلق يا بول، لقد ولّدت أطفالاً كثيرين في ظروف أسوأ من هذه. والآن، إذا أردت القيام بعمل جيد، إتصل بمركز سيارات الإسعاف من جديد.

أسرع بول إلى السيارة ليجري الاتصال، فيما عاد نيال إلى المرأة الشابة المستلقية على العشب بعد أن صنع لها فراشاً مؤقتاً من بساط وسترات قديمة كانت في صندوق السيارة. وضعت سارا المصباح في موضع أضاء القسم السفلي في جسم المرأة، لتنشغل بعد ذلك في فحص تطوّر حالتها.

ـ كيف حالها، يا سارا؟

كان صوت نيال هادئاً حيادياً، لا يكشف عن شعوره. وكانت تعلم حاجة جيني إلى الهدوء والاسترخاء في هذا الوضع حيث لا مسكّنات للألم.

ـ كل شيء على ما يرام يا دكتور جيلسبي. يمكنني أن أرى الآن رأس المولود.

أجابت سارا بهدوء مماثل، رغم أن قوله أثار فضولها، ما الذي عناه حين قال إنه ولّد الكثير من الأطفال في ظروف أسوأ من هذه بكثير؟

ـ هذا حسن. لن يطول الأمر إذن.

والتفت إلى جيني، وقال يشجعها:

ـ أريدك يا جيني أن تركزي تفكيرك على كل ما تعلمته في مرحلة التدريب قبل الولادة. ويمكنك أن تدعي الأمر لي ولسارا. عندما أقول لك أن تلهثي لا أن ترفعي، ستفعلين، وإن كنت ترغبين بالقيام بعكس ذلك. هل فهمت؟

ـ نعم، فهمت.

واستطاعت جيني أن تبتسم رغم الرعب الذي أطلّ من عينيها وقالت:

ـ أظن أن «بول» عوّض عن خطئه بعدم فحص العجلة قبل الانطلاق، وذلك بتوقيفكما لطلب العون!

ـ أتصوّر أن احتمال نجاحه في توقيف سيارتي كان واحداً من ملايين!

وضحك نيال ثم ركز انتباهه الكامل على جيني.

أخذت سارا تراقب بعناية، تطوّر الولادة، وأومأت حين نظر إليها قائلة:

ـ كل شيء يسير على ما يرام.

قال بول وهو يندفع نحوهم ليخبرهم بما جرى معه:

ـ ستصل بعد عشر دقائق أخرى. يبدو أن زحام موكب «المشاعل» قد أعاقها.

وركع على الأرض قرب زوجته وأمسك بيدها وهو يسأل:

ـ كيف حالها؟ والطفل؟

ـ بخير. كل شيء يسير... آه، ها هو الطلق مرة أخرى!

قطع كلامه عندما شهقت جيني وقد عاودها الطلق.

ـ والآن أصبري... هذا حسن.. حاولي ألاّ ترفعي.

ـ ها قد بدا الرأس.

شعرت سارا بقشعريرة الإثارة. وبرفق، أمسكت برأس المولود، وأدخلت خنصرها في فمه لتخرج منه المواد المخاطية، ثم ضحكت حين صرخ فجأة باكياً.

قالت:

ـ حسناً، هذا الصغير يسعى لإعلان وجوده على الفور. لم ينتظر حتى يخرج كلياً إلى هذا العالم الواسع.

وبعد دقائق، انتهى كل شيء. لفته سارا بوشاح كبير كانت جيني قد وضعته في الحقيبة التي حملتها معها إلى المستشفى، ثم ناولت الطفل الصارخ إلى أمه قائلة:

ـ إنه صبي صغير ذو رئتين قويتين بحسب الصوت الصادر عنهما.

ـ صبي؟

راحت جيني تضحك وتبكي في الوقت نفسه وقد نسيت خوفها وألمها حين احتضنت ابنها بين ذراعيها. وانهمرت دموع بول هو أيضاً، وبدا على وجهه مزيج من الذهول والزهو وهو ينظر إلى ابنه.

شرع يقول:

ـ لا أدري كيف أشكركما...

ثم سكت بعد أن غلبته المشاعر.

فقال له نيال وهو يربت على كتفه:

ـ لا داعي لشكرنا، فنحن مسرورون للغاية لتمكننا من المساعدة.

والتفت إلى الطريق بعد أن سمعوا صوت سيارة الإسعاف البعيد، ثم ضحك بهدوء معلقاً:

ـ يبدو أن سيارة الإسعاف نجحت أخيراً في الوصول. حسناً، أن تصل متأخراً خير من ألا تصل أبداً.

قامت سارا بتغطية الأم وطفلها بالدثار، ثم نهضت وانتظرت بجانب الطريق حتى توقفت سيارة الإسعاف. وبعد ثوانٍ، رفع طاقم السيارة الأم والطفل لنقلهما، وكانوا على وشك إغلاق الباب، عندما نادت جيني:

ـ انتظروا لحظة. ما اسمك الأول يا دكتور جيلسبي؟

فأجاب على السؤال بحيرة: «نيال».

ـ نيال.

أخذت جيني تردد الاسم ثم قالت:

ـ نعم، إنه يعجبني.

والتفتت إلى زوجها ضاحكة وأضافت:

ـ لم نستطع أن نتفق على اسم، لكن أظننا وجدنا الاسم المناسب. هل نستطيع أن نطلق اسمك على ابننا، يا دكتور جيلسبي؟

فأجاب نيال برقة:

ـ هذا يشرفني، يا جيني. شكراً لك.

ظهرت مشاعر عميقة في صوته فتسببت بغصة في حلق سارا.

غالبت دموعها وهما يلوّحان لسيارة الإسعاف، وتملّكها العجب لرغبتها في البكاء بعد ما حدث الليلة.

ـ حسناً، كانت أمسيةً استثنائيةً، أليس كذلك؟ ولم تنته بعد.

نظر ساخراً إلى بقعتي الوحل على ركبتي بنطلونها الجينز. ثم التفت إلى بنطلونه الذي كان قذراً أيضاً، وقال:

ـ أظن أنه علينا أن نغيّر ملابسنا قبل أن نتابع طريقنا إلى الحفلة. وإلا سنضطر إلى تقديم شرح مفصّل عن سبب هذه الحالة المزرية.

شعرت سارا بوجهها يحمر خجلاً وهي تسمع نبرة المزاح في صوته. فأسرعت نحو السيارة، كي لا تفكّر في التفسير الذي قد يعطيه الآخرون

لحالة ملابسهما.

نظر نيال إليها وهو يجلس خلف المقود:

ـ بيتك أم بيتي؟

ـ عفواً؟

أجفلت وهي ترى الإبتسامة التي ارتسمت على شفتيه وهو ينطلق بالسيارة.

ـ هل نذهب إلى بيتي أولاً لأغيّر ملابسي، أم تريدين الذهاب إلى بيتك؟

ـ آه.. ذلك... ذلك غير مهم حقاً.

وتساءلت عما إذا كانت تتخيل أشياء لا وجود لها. هل سمعت حقاً تلك النبرة العابثة في صوته؟

شغلت هذه الفكرة بالها طوال الطريق. ومع ذلك، وحين توقفت السيارة أمام بيته، لم تكن واثقة مما إذا كانت مخيّلتها تعبث بأعصابها مرة أخرى. نظرت حولها بسرعة، متسائلة عما إذا كان عليها أن تنتظر في السيارة فيما يغيّر ثيابه. لكنه أخذ القرار بدلاً منها، حين دار حول السيارة ليفتح لها الباب.

تبعته سارا إلى المنزل. وعندما أشعل الأنوار نظر إليها باسماً نظرة اعتذار، بعد أن لاحظت أكوام الخشب والمعدات منثورة على أرض الردهة:

ـ إنني أجدد المنزل، لهذا أعتذر عن هذه الفوضى. لحسن الحظ، لا آتي إلى هنا إلاّ للنوم ولذلك لا ألاحظه. أنهيت العمل في المطبخ، فهل تريدين انتظاري هناك؟

ـ نعم، بالطبع.

وأخذت تنقّل خطواتها في الردهة بحذر، ثم شهقت مسرورة عندما

فتحت باب المطبخ، وقالت:

ـ آه، هذا جميل جداً.

ـ هل أعجبك؟

وتبعها إلى المطبخ ثم أخذ ينظر حوله بابتسامة راضية وأضاف:

ـ لقد جاءت النتيجة كما أردتها بالضبط. عندما أشعر بالكآبة على حالة المكان، أدخل إلى هنا لأذكّر نفسي بأنني لم أخطىء حين اشتريت هذا المنزل.

فقالت ضاحكة، غير قادرة على إخفاء إعجابها بالمطبخ:

ـ لم تخطىء حتماً.

ومررت إصبعها على خشب الصنوبر الذي صنعت منه الخزائن. ورأت خزانة ذات رفوف للأطباق تمتد من الأرض إلى السقف، وقد رتبت فيها أطباق صفراء وزرقاء تتماشى مع ستائر النوافذ.

سارت إلى النافذة لتنظر منها إلى الحديقة، وأجفلت عندما لمس نيال ذراعها بخفة، ليحوّل انتباهها إلى حيث كان يشير:

ـ تلك هي أدير تحلّق. هل ترينها؟

ـ نـ... نعم.

حاولت أن تجعل نبرة صوتها طبيعية ولكنها عجزت عن إخفاء ارتجاف كلمتها هذه. كان نيال قريباً منها للغاية فاشتمت رائحة العشب التي علقت بثيابه وامتزجت برائحة النظافة التي تفوح منه. أخذت نفساً عميقاً، فساءت الأمور أكثر. وازدادت فعالية الرائحة، فجعلت رأسها يدور. طالت لمسته لذراعها، فتسارعت نبضات قلبها، وأدركت أنها تحبس أنفاسها.. ثم.. ابتعد نيال فجأة.

ـ سأبدل ثيابي ولن أتأخر. حضّري لنفسك القهوة إذا ما شئت. ستجدين كل ما تحتاجينه في الخزائن.

ـ شكراً.

وانتظرت حتى ابتعد، فاستدارت تحدق في الباب ثم تنفست بعمق قبل أن تبدأ بتحضير القهوة... أرادت أن تشغل نفسها أكثر مما أرادت أن تشرب القهوة. وفضّلت ذلك على الجلوس والتفكير في طبيعة الشعور الذي أثاره نيال فيها حين وقف قربها منذ دقائق.

وضعت إبريق القهوة على الموقد الكهربائي، ثم ضغطت على الزر. فتعالى صوت دوي، انطفأت بعده الأنوار فجأة، وغرق المكان كله في ظلام دامس.

ضغطت سارا على قلبها الذي تسارعت خفقاته، وتساءلت عما فعلته. ثم سمعت صوت نيال يناديها، فسارت باتجاه ما ظنته الباب، لكنها ما لبثت أن أطلقت صرخة ألم حين اصطدم وركها بزاوية المنضدة.

صاح حالما سمع صوتها:

ـ سارا؟ هل أنت بخير؟

واندفع يهبط السلالم ركضاً، ثم أطلق شتيمة حين تعثر بكومة من الأخشاب في الردهة.

سارت نحو الباب باحتراس، حتى لا تصطدم بشيء آخر، ووركها لا يزال يؤلمها:

ـ أنا بخير يا نيال. لا أدري ما الذي حدث. ضغطت على زر الموقد الكهربائي فانقطعت الكهرباء. آسفة.

ـ هذا غير مهم. هل أنت بخير؟

كان مجرد ظل عندما تقدم نحوها في الردهة. سادت الظلمة في المنزل، ولم يضئه سوى شعاع القمر الفضي الذي تسلل عبر نافذة المطبخ. عندما وصل إلى عتبة الباب أدركت أنه لا يرتدي سوى بنطلون الجينز.

اتسعت عيناها لرؤيته بهذا الشكل، ولم تستطع تحويلهما عنه.

كان جسمه متناسقاً، رائعاً. لاحظت ذلك وعيناها تتنقلان من كتفيه العريضتين إلى وركيه الضيقين، وبدا كتمثال من العظام والعضلات القوية. ولم تلاحظ التعبير الذي بدا على وجهه إلاّ بعد أن رفعت عينيها ورأت نظرة النهم التي رمقها بها فأيقظت حواسها كلها.

ـ سارا...

نطق باسمها برقة، كما نطقه ذلك اليوم عند النهر، فتملكها دوار عندما اختلط المشهدان في ذهنها. لم تدرك من الذي قام بالخطوة الأولى، لكنها أحست بذراعيه حولها تضمانها إليه بشدة.

ارتجفت يده وهو يرفع وجهها إليه ليتأملها، وسرت الرعشة في جسدها هي أيضاً. كانت لحظة سحرية امتزج فيها الترقب بالخوف إذ أدركا أنهما يتعديان الحدود التي رسماها ذلك اليوم قرب النهر.

حينذاك عانقها نيال بحاجة وعاطفة محمومة، وبدا وكأنه عاجز عن منع نفسه. أما في هذه اللحظة، فقد أحست سارا بأنه يدرك جيداً ما يفعله، وأن الخيار بيده. إلا أنه لم يشأ أن يتراجع ويبتعد.. مما شكّل كل الفرق.

أدركت أنه أراد هذا العناق بقدر ما كانت تريده هي. لقد غيّر كل ما مضى، ومحا ذكرى تلك المرة المؤلمة، وهدّأ مخاوفها كلها.

ـ سارا.. سارا..

نطق باسمها مرة أخرى، وراح يكرره بشوق، فجعله من الجمال بحيث اغرورقت عيناها بالدموع.

أمسكت بوجهه بين يديها، وأخذت تتأمل قسماته، أرادت أن يعرف كم تحبه وتشتاق إليه، إلى وجوده... واهتمامه. وتأوه مطوّلاً وهو يأخذها بين ذراعيه مجدداً ليضمها إليه بعاطفة محمومة تماثل عواطفها.

ـ نيال...

همست باسمه خارقة الصمت، فشعرت به يجمد مكانه وهو يتلمس العواطف الجياشة التي حملها صوتها. وتوقف قلبها عن الخفقان حين أخذت تتساءل عما إذا كان يرفض ما تقدمه له من حب وحنان.

لكنه لم يتردد طويلاً، بل أدار وجهها نحوه وأخذ يلمسه ببطء ورقة بأطراف أصابعه مما جعلها تتجاوب معه بشكل لم تكن تدرك قبل الآن أنها قادرة عليه.

أمسكها من يدها، وتوجها معاً نحو الشرفة، حيث جلسا على الأرجوحة. ضمها بين ذراعيه بحنان وشوق لم ترَ لهما مثيلاً. وأدركت سارا أن هذه الأمسية انطبعت في ذهنها إلى الأبد. لم تحب رجلاً آخر من قبل، ولم ترغب في ذلك قط. لكن البهجة والسعادة غمرتاها الآن، وهي تجلس قرب هذا الرجل الذي استحوذ على حبها واهتمامها وعواطفها كلها.

* * *

ـ سارا.

ناداها باسمها برقة من جديد، لكن صوته حمل نبرة جعلت قلبها يجمد. أبقت عينيها مغمضتين وقد تملّكها إحساس بالخوف. إذا ما أعرب نيال عن ندمه لتصارحهما بعواطفهما، فلن تحتمل ذلك.

ـ آه، يا سارا.

وأدناها منه، وضمها إلى صدره الدافىء، وراح يمرر أصابعه في شعرها الطويل.

ارتجفت سارا، وهي تشعر بمزيج من الإرتياح والشوق إليه. سيكون كل شيء على ما يرام، لأن نيال ما كان ليعانقها ويضمها بهذا الشكل لو لم يكن يُكنُّ لها بعض الحب.. وماذا لو لم يكن يحبها؟ لم تستطع

التخلص من هذا الإحساس بالشك، فأجفلت حين ابتعد عنها، وهو يقول بهدوء:

ـ يجب أن نتحدث، يا سارا.

ـ لماذا؟

وضحكت ضحكة قصيرة، اختلط فيها التوتر بالشك، وأضافت:

ـ ماذا هناك لنقوله، يا نيال؟ أردت منك أن تعرف مشاعري نحوك، وأنت أيضاً أردت ذلك.

ـ نعم، لقد أردت ذلك.

كان في موافقته ألم مبرّح، شعرت به يدمي قلبها فشهقت. رأت وجهه يتغضن، وهو يغالب عواطفه، فعرفت أنها لن تنال أكثر من ذلك.

هبت واقفة، وهي تشعر بالذل. فقد ندم نيال على إظهار اهتمامه بها وعواطفه نحوها! وأحست حين أدركت ذلك أن أثمن لحظات حياتها، أضحت رخيصة.

بدا وجهه قاتماً، كما غاب لون عينيه فبدتا باردتين فارغتين.

ـ سأحضر القهوة. لا!

ورفع يده يسكتها حين رآها تهم بالكلام، وأضاف:

ـ أقل ما علي أن أفعله هو أن أشرح لك الأمر، يا سارا.

ودخل إلى المنزل قبل أن تنطق بكلمة واحدة. اخترق وقع قدميه على الأرضية الخشبية السكون. أخذت تتنفس بعمق ولكن الهواء أبى أن يملأ رئتيها، وأحست بالموت والفراغ، وبرغبة في الهرب من هذا البيت ومن نيال ومما قد يقوله. ولكنها أدركت أنها لن تستطيع الهرب من مشاعرها، فلبثت في مكانها. ما سيقوله أو سيفعله، لن يشكّل أي فرق. إنها تحبه حتى وإن كان لا يشعر بشيء نحوها.

وعندما دخلت أخيراً إلى المنزل، وجدته جالساً إلى مائدة المطبخ.

ودّت لو تغتسل، وتترك المياه الساخنة تنصب على جسدها البارد، علّها تدفىء أطرافها المتجمدة. لكن ما من شفاء لهذا الصقيع الذي جرى في شرايينها! قد يدفئها نيال بحنانه مرة أخرى، لكنها شكت في أن يساعد ما سيقوله على ذلك.

نهض وسكب لها فنجان قهوة دون أن ينطق بكلمة واحدة. وجلست هي بوهن، قانعة بتدفئة يديها حول فنجانها، فقد خشيت أن ترفعه إلى شفتيها ويداها ترتجفان بهذا الشكل.

سمعته يتمتم بصوت خافت، لكنها لم تنظر إليه. لم تستطع ذلك، لم تستطع أن تنظر إلى عينيه فتقرأ فيهما الندم.

ـ هل تذكرين حين التقيت بلورا؟

كان صوته خافتاً، ولهذا لم تجفلها اللهجة بل السؤال. رفعت عينيها إليه، لكنها سرعان ما حولتهما بعيداً حين رأت نظراته على وجهها، وقالت:

ـ لا أفهم ما تعنيه.

وارتجف صوتها.

ـ قالت لورا إنها تظن أنها تعرفت إليّ من قبل.

كان صوته خشناً بعض الشيء، مما يظهر أنه يبذل جهداً بالغاً ليحدثها عن الموضوع.

أرادت أن تمدّ يدها لتلمسه، وتخفف عنه وتريحه، لكنها خشيت أن يصدّها. فقدرتها على السيطرة على أعصابها ضعيفة للغاية.

وعندما أومأت، تابع يقول، وقد ازداد انخفاض صوته فزاد في توتر أعصابها:

ـ لم أعرف بما أجيب، صراحة. تجاهلت الأمر لأنني لم أشأ أن أعترف بأنها رأت على الأرجح صورة لي. ولهذا السبب بدوت مألوفاً

لها.

ـ لا أفهم. أي صورة؟ ماذا تقول، يا نيال.

وأدركت فجأة أنّ عليها أن تعرف كل شيء. ما شأن لورا أو الصورة بكل هذا؟

أخذ يحدق في فنجانه الفارغ وقد عكس صوته كآبة جعلتها تضطرب حتى قبل أن تسمع ما كان يقوله:

ـ الصورة التي كانت «أليسون» تحتفظ بها قرب سريرها. كانت شريكتها في الغرفة فتاة تدعى لورا عندما كانت تلميذة في مدرسة التمريض. ولعلها هي لورا التي قابلتها الليلة الماضية.

ـ أليسون؟

وبللت سارا شفتيها وسألته: «ومن... من هي أليسون؟».

عند ذلك رفع بصره، وبدا في عينيه تعبير جمّد الدم في عروقها، وأجاب:

ـ زوجتي.

* * *

١٠ ـ لن يحبها أبداً

ـ زوجتك..

سمعت سارا نبرة الصدمة في صوتها. وأخذت تحدق في نيال وقد شحب وجهها ليماثل شحوب الأموات.

تنفست بسرعة وهي ترى الغرفة تدور من حولها وقالت:

ـ أنا لم... لم أكن أعلم أنك متزوج.

ـ أنا لست متزوجاً حالياً.

وهبّ واقفاً فجأة وسار نحو النافذة، وأراح يديه على قاعدتها ثم أحنى رأسه، وتابع يقول:

ـ توفيت أليسون منذ ثلاث سنوات عندما كنا نعمل مع القوات الدولية في أفريقيا.

واستدار نحوها فعضت سارا على شفتها وهي ترى العذاب في عينيه، وسمعته يضيف:

ـ وقد مات الطفل معها.

ـ طفل..؟

وعجزت عن إضافة أيّ كلمة أخرى، فقد أثقل ذهنها ما أخبرها به، وامتلأ قلبها أسى للألم الذي رأته على وجهه. ولكن بدا أنه لم يكن بحاجة إلى ما يحثه على الكلام، وساورها شعور بأنه يريد أن يطلعها على الأمر... إنه بحاجة إلى أن يروي لها القصة كلها.

ـ نعم، كانت أليسون حاملاً في شهرها السابع عندما ماتت من جراء نزيف في المشيمة.

ـ نزيف في المشيمة؟

وقطبت سارا جبينها وهي تحاول استيعاب ما تسمعه ثم أضافت:

ـ ولكن أما كان ممكناً مساعدتها؟ فهذه الحالة لا تؤدي إلى الوفاة عادة.

ـ لو كنت موجوداً، ربما لاستطعت مساعدتها. وهذا ما فكرت فيه مراراً وتكراراً. هل كان بإمكاني أن أنقذ أليسون؟

ومرر أصابعه في شعره بضعف. كان وجهه كئيباً وعيناه غائمتين بذكرى ما حدث. حزنت سارا من أجله ولما عاناه، وللألم الذي يملأ نفسه. ولكن أي عزاء يمكنها أن تقدمه له؟ كل ما يمكنها فعله هو الإصغاء إلى حديثه، وإن كان قلبها يتحطم يأساً.

ـ أين كنت، يا نيال؟ قلت إنك كنت في أفريقيا، ولكن أين كنت عندما.. عندما مرضت أليسون؟

تنهد وهو يعود ليجلس عند المائدة، وقال:

ـ توجهت إلى إحدى القرى الحدودية البعيدة، حيث كنا ندير برنامج تلقيح في المنطقة. تألف فريقنا من طبيبين وثلاث ممرضات، وكانت أليسون إحداهن. إلاّ أنها خفضت ساعات عملها عند تقدم حملها. لم تكن مريضة أو ما شابه، بل كانت تشعر بأنها في أحسن حال. لقد ناسبها الحمل.

وابتسم وهو يشرد مع الذكريات ويضيف:

ـ كانت أليسون امرأة هادئة جداً، لكنها حازمة للغاية. لهذا رفضت العودة إلى انكلترا عندما اكتشفت أنها حامل. كانت تؤكد أنها لن تتعرض لأي خطر إذا ما أنجبت طفلها حيث كنا نعيش. وكان المكان يبعد أكثر

من مئة ميل عن أقرب مستشفى. أقنعتني بأن لا بأس في ذلك وأن لا شيء يستدعي القلق.

رفع ناظريه، فشعرت سارا بعينيها تغرورقان بالدموع حين رأت الأسى على وجهه، وهو يقول:

ـ ما كان عليّ أن أصغي إليها. كان عليّ أن أجبرها على العودة إلى الوطن.

لمست يده الملقاة على المائدة، وقالت:

ـ ما كنت لتعلم، يا نيال. لم يكن بإمكانك أن تتنبأ بما سيحدث، وليس باستطاعة أحد أن يفعل.

ـ ربما، ربما هذا صحيح. ولكن ما كان عليّ أن أتركها كل هذه الفترة. فالقرية التي قصدناها تبعد يوماً كاملاً في سيارة الجيب عن المركز الطبي. وهذا يعني أنه علينا قضاء يومين في الطريق ذهاباً وإياباً، ويوماً في القرية للعمل. قررنا أن يذهب الفريق كله، فلا بد أن هناك أمور أخرى نقوم بها عدا التطعيم. وكان على أليسون أن تبقى لتواجه أيّ مشاكل صغيرة قد تنشأ أثناء غيابنا.

ـ لقد جرى ذلك إذن أثناء غيابكم عن القرية؟

ـ نعم. وكما علمت فيما بعد، بدأت أليسون تنزف بغزارة عصر أول يوم. كان في المركز امرأتان من المواطنين الأصليين، لكنهما تفتقران إلى العلم والخبرة فلم تعرفا ما عليهما فعله. طلبتا من أليسون أن تستلقي، وقامتا بكل ما في وسعهما، لكن النزيف لم يتوقف... أرسلوا بطلبي إلى القرية، فتركت كل شيء وعدت على جناح السرعة، ولكن الأوان كان قد فات. فقد توفيت أليسون من الصدمة التي يسببها النزيف.

ـ أنا آسفة جداً، يا نيال. لا بد أنك عانيت الكثير.

ومسحت سارا دموعها وهي تضيف:

ـ يا له من حدث مؤلم.

ـ كان بالإمكان تجنبه وهذا ما يعذبني أكثر... لو لم أصطحب أليسون معي إلى أفريقيا للعمل، لما حدث ذلك قط. كما أنها لم تكن من النوع المغامر! لقد رافقتني لأنني أردت ذلك. سافرت معي إلى هناك، ومع ذلك، وعندما كانت بأمس الحاجة إلي، أين كنت أنا؟ أين كنت أنا، يا سارا؟

ـ لا تقل هذا.. لا، يا نيال.

نهضت سارا، ودارت حول المائدة، ثم تقدمت نحوه وأحاطته بذراعيها تضمه إليها لتخفف عنه قدر إمكانها. قالت:

ـ لم يكن الذنب ذنبك. يجب أن تدرك هذا.

ـ يا ليتني أستطيع!

وابتعد عنها فجأة، موضحاً أنه لا يريد أي تعزية منها. وتراجعت، وشدت على قبضتيها وهي تراه يقصيها عنه من جديد. وعندما نهض وتوجه نحو الباب لم تحاول منعه. وكيف تستطيع ذلك؟ فليس لديها ما تقدمه إليه. لعل ما شعر به نحوها، الليلة الماضية، لم يكن سوى رغبة عابرة، لكنها لم تكن كافية لتنسيه المرأة التي ما زال يحبها.

وقف ويده على مقبض الباب، ثم قال بصوت خالٍ من أي شعور:

ـ وأنا ألوم نفسي على تطوّر الأمور بيننا، يا سارا وإبداء أسفي غير كافٍ، لكنني آسف فعلاً. كل ما أرجوه هو أن تتمكني مع الأيام، من الصفح عني.

كيف يمكنها أن تحتمل ذلك؟ كيف يمكنها أن تبقى وتستمع إليه وهو يتنكر لكل ما شعرا به الليلة الماضية؟ لكن يبدو أن شعور نيال لم يكن كشعورها. وهذا ما يحاول أن يقوله لها، إنها مجرد بديل للمرأة التي

أحبها ليس أكثر.

لم تعرف سارا كيف تمكنت من الحفاظ على أعصابها، ومنع نفسها من الانهيار عند هذه النقطة.

ـ لم يحصل شيء يستدعي الصفح. والآن، إن كنت لا تمانع، أود أن أعود إلى بيتي.

وارتجف صوتها رغماً عنها وهي تضيف:

ـ أظن.. أظن من الأفضل لو حاولنا نسيان ما حدث، أليس كذلك؟

تنحى جانباً حين توجهت إلى الباب. ومضت لحظة ظنت فيها أنه يهم بالكلام، لكن هذا لم يحدث.

تقدمته نحو الباب، ووقفت في الحديقة تتنشق هواء الصباح العليل. كانت الشمس قد شقت طريقها من بين الغيوم وأرسلت أشعتها الذهبية على الأشجار. وبدا لها هذا غير مناسب، كان من المفترض أن تمطر السماء، ويكتئب الجوّ كي يتلاءم النهار مع مشاعرها، بعد أن تلاشى فجأة كل لون ودفء من حياتها.

لن يحبها نيال أبداً كما أحبته، وقد فاق ذلك قدرتها على الاحتمال.

* * *

ـ سارا، ماذا حدث لك؟ بطاقة الاسم موضوعة خطأ.

وأعادت إيرين الطفلة إلى المنضدة وقطعت بسرعة السوار البلاستيكي من حول معصمها، ثم تناولت قلماً وكتبت المعلومات الصحيحة على البطاقة.

استبدلت البطاقة الأولى بالجديدة ثم حملت الطفلة إلى أمها، قائلة:

ـ هاك، يا سيدة «لويس». هل تريدين أن تحملي «لوسي» بعد أن اغتسلت وأصبحت جميلة؟

تركت إيرين الوالدين المبتهجين بابنتهما، ثم عادت لتنهي عملها. نظرت إلى سارا وهي ترفع حاجبيها ممازحة، لكن سارا لمحت الاهتمام في عيني صديقتها وهي تقول:

ـ أن يحدث خطأ كهذا... وفي آخر يوم لي هنا!

قالت ذلك بلطف، لكن سارا كانت تعلم أنه خطأ لا يُغتفر.

ـ آسفة... فقط... فقط لم أدرك..

وسكتت عندما اغرورقت عيناها بالدموع. أصبح هذا يتكرر مؤخراً. فأي شيء يجعلها تبكي بسهولة. أشاحت بوجهها وهي بالكاد تسمع تعليمات إيرين إلى هيلين الهادئة، بأن تنقل المريضة إلى القسم. وعندما انغلق الباب، استدارت إيرين إليها مجدداً، وسألتها:

ـ ما الذي يحدث، يا سارا؟ أخبريني. لقد تغيّرت كثيراً منذ ليلة حفلتي. ماذا حدث حينذاك؟ أعلم أنك ونيال انشغلتما بحالة ولادة في الطريق، لكن ثمة شيء آخر حدث، أليس كذلك؟

ـ لا أفهم ما تعنينه؟

وحاولت سارا أن تضحك، لكن ضحكتها جاءت مصطنعة، عالية أقرب إلى الهياج العصبي. عضت على شفتها وهي تشغل نفسها بترتيب غرفة التوليد لتعدّها لولادة جديدة، فنظرت إليها إيرين بهدوء وقالت:

ـ لا تفهمين؟ أنا لست عمياء. أعرف أن شيئاً ما حدث تلك الليلة بينك وبين نيال جيلسبي.

ولاحظت النظرة المجفلة التي رمقتها بها سارا فابتسمت بلطف وأضافت:

ـ يجب أن أكون عمياء وصماء وخرساء حتى لا ألاحظ توترك حين تكونين بقربه، عزيزتي، هل هناك شيء ما بينكما أستطيع أن أعرفه؟

ـ لا.

ثم خففت سارا من لهجتها الحادة وهي ترى الدهشة ترتسم في عيني إيرين، وهزت كتفيها قائلة:

ـ لا أظن أن نيال مهتم بي، يا إيرين.

ـ ولكن ماذا عنك أنت؟ هل أنت مهتمة به؟

ولم تنتظر إيرين جوابها، إنما غيّرت الموضوع بلباقة، ما جعل سارا ممتنة لها. وأكملت بقية نهارها دون أن ترتكب المزيد من الأخطاء. لكنها وجدت صعوبة في التركيز على عملها، كحالها مع أيّ شيء آخر حالياً. كان ذهنها لا ينفك يعود المرة تلو الأخرى، إلى ما حدث.. إلى تلك الليلة الرائعة عندما أحست أن العالم ملك يديها، ثم إلى الصباح التالي حين انهار كل شيء من حولها.

وعندما حان وقت الغداء، كانت قد وصلت إلى حافة اليأس. لا شيء يمكنه أن يغيّر حقيقة أن نيال ما زال يحب زوجته. وعليها أن تتقبل ذلك وتتابع حياتها الخاصة. لكنها أدركت فجأة، أن هذا الأمر مستحيل وهي تراه كل يوم، لهذا عليها أن تترك مستشفى «دلفرستون العام». فهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستحررها من عذاب التفكير في عدم اكتراث نيال بها.

تركت غداءها في خزانتها، وتوجهت إلى مكتبة المستشفى حيث أخذت رزمة من مجلات التمريض من على الرف.

قرأت إعلانات عن العديد من الوظائف، تتراوح بين قابلة خارجية وممرضة خاصة في لندن. وصوّرت الصفحات التي لفتتها، ثم وضعتها في حقيبتها لتعيد قراءتها في بيتها مساءاً. لم تشأ أن تترك هذا المستشفى. لكن لم يبقَ أمامها خيار آخر فرؤية نيال يومياً أمر يعذّبها، وتعجز عن احتماله.

وكأنما قدّر لها العذاب، فكان عليها أن تعمل معه في اليوم نفسه، حين أحضرت سيارة الإسعاف حالة طارئة. خرجت سارا لتلاقي

الممرضين وقلبها على المرأة الممدّدة على الحمّالة وقد فقدت وعيها. وكان ممرضو الإسعاف قد وضعوا لها مصلاً، ففتحت سارا الباب على مصرعيه ليمروا منه. سألتهم:

ـ ماذا لدينا؟

ـ اسمها «تيريزا كيلي». نزيف حاد. وهذا كل ما نعرفه عنها، باستثناء أنها أنجبت طفلاً منذ أسبوعين.

والتفت الممرض إلى الوراء عندما وصلت سيارة إلى الباب، وقال:

ـ هذا زوجها. وقد اصطحب أولاده إلى بيت أحد الأقارب قبل أن يلحق بنا إلى هنا. لديه خمسة أطفال، جميعهم دون السابعة من العمر، كما فهمت. فضلاً عن الطفل الرضيع، أي أن المجموع ستة.

ولوى الممرض شفتيه.

ـ ستة؟

وألقت سارا نظرة فزع على المرأة المحمولة وأضافت:

ـ تبدو لي كبيرة في السن.

ـ هذا ما تقولينه أنت.

ولم يزد الممرض على ذلك وهو يساعد على نقل المريضة إلى العربة. أخذتها سارا على الفور إلى قسم الجراحة حيث طلبت من هيلين أن تقيس ضغط دمها ونبضها فيما اتصلت تطلب طبيباً. توقعت حضور مينا، لكن الباب فتح وبرز منه نيال قائلاً:

ـ مينا مشغولة. ماذا لديك؟

كانت لهجته مقتضبة واهتمامه مركزاً على المريضة الغائبة عن الوعي. أخذت نفساً عميقاً، وأرغمت نفسها على التركيز على حالة المريضة، بالرغم من أن وجودها قرب نيال لم يكن بالأمر السهل. وقالت بهدوء:

ـ اسمها «تيريزا كيلي»، وقد أنجبت طفلاً منذ حوالى الأسبوعين، وهو طفلها السادس. تعاني من نزيف حاد، لكننا لم نعرف عنها أي شيء آخر بعد.

ـ ولما لا؟ بحق الله يا سارا، كان عليك أن تعرفي ما يكفي عن تاريخ المريضة، كي تكون لدينا فكرة عما نواجهه؟

والتفت إلى هيلين وقد سيطر على صوته ببرودة بالغة قائلاً:

ـ اذهبي وحاولي إحضار أوراقها. أحضريها بأسرع ما يمكن.

وأدار عينين باردتين إلى سارا، بينما أسرعت هيلين نحو الباب. سألها:

ـ هل كان برفقتها أحد؟

ـ لا... لا بد أن زوجها ينتظر في الطابق السفلي.

راحت ترتجف، وحاولت ألا تظهر له مدى تأثرها للهجة التي خاطبها بها.

أشاحت بوجهها، وهو يأمر هيلين باقتضاب، بأن ترى ما يمكنها معرفته من زوج تيريزا أيضاً. وارتجفت يداها وهي تنزع، بسرعة، ملابس المرأة المخضبة بالدم.

ـ والآن، فلنر ما لدينا.

تجهم وجهه وهو يفحص المرأة الغائبة عن الوعي وسأل:

ـ ما هي حرارتها وضغط دمها؟

التقطت سارا الجدول وقرأت ما دون عليه، فأومأ باختصار، وركز اهتمامه على عمله. وكان قد فرغ من ذلك تقريباً، عندما تحركت المريضة، وقالت:

ـ أين أنا؟

وحاولت النهوض لكن الألم ما لبث أن عاودها، فانحنت وهي

تمسك ببطنها.

ـ لا تتحركي، يا سيدة كيلي.

وأعاد نيال المرأة الشاحبة إلى الوسائد خلفها وقطب وجهه اهتماماً وهو يسألها:

ـ متى حدث هذا؟ هل تنزفين بشدة منذ ولادة طفلك الأخير؟

ـ نعم، كثيراً. ظننته سيتوقف، لكنه ازداد سوءاً اليوم، ورحت أشعر بارتفاع حرارتي وبدوار. وعندها بدأ الألم يتابني... هنا.

ومدت تيريزا يدها لتشير إلى بطنها. وكانت قطرات العرق تتشكل على جبينها فتقدمت سارا بهدوء نحو أعلى السرير لتمسكها.

ـ هل واجهت مشاكل أثناء الولادة؟ لقد أرسلت ممرضة لتحضر ملفك، ولكن إذا ما أخبرتني بكل شيء، ستوفرين علينا الوقت.

فتمتمت تيريزا:

ـ لا. كل شيء جرى ببساطة...

وتجنبت النظر إلى عينيه، وراحت تتأمل يديها اللتين كانتا تضغطان على بطنها.

ـ فهمت.

بدا جلياً أنه لمس النفور في صوتها. وتساءلت سارا عما يستتر وراء ذلك. ولكن، وقبل أن تسترسل في تكهناتها، التفت نيال إليها، وقال بلهجة أكثر تكلفاً ورسمية:

ـ أظن أنه علي أن أفحصها بشكل أدق لأرى سبب ذلك. جهزي المريضة، أيتها الممرضة.

أمتثلت سارا لأوامره، فساعدت تيريزا على خلع ملابسها وارتداء ثوب مخصص لهذه الحالات، بينما أخذ نيال يغسل يديه. وأثناء ذلك عادت هيلين وتوجهت مباشرة نحوه، وأخفضت صوتها ليسمعه وحده.

وأدركت سارا من الشتيمة التي أطلقها أنه لم يكن مسروراً بما سمعه.

كان وجهه جامداً حين أشار إليها بأن تنضم إليهما، وقال:

ـ يبدو أن السيدة كيلي لم تدخل المستشفى لتلد آخر أطفالها، كما لم تستدع قابلة قانونية. يقول زوجها إن أمه هي التي ولّدتها.

ـ أمه؟ وهل تعرف ما تفعله؟

طرحت سارا سؤالها هذا بذعر واضح.

ـ لا. يبدو أن الزوج لا يرَ جدوى إحداث جلبة عظيمة بسبب شيء تافه كالولادة. فهذه هي وظيفة المرأة التي خُلقت من أجلها، لهذا ستسير الأمور بسهولة، أو شيء من هذا القبيل.

ـ يا إلهي! أهناك من يؤمن بهذا في أيامنا هذه؟

والتفتت سارا إلى الخلف، تنظر إلى المرأة المستلقية على السرير فبدا العطف على وجهها وهي تقول:

ـ لعل هذا يفسر إنجابها لكل هؤلاء الأطفال في مثل تلك الفترة القصيرة. ولعله لا يؤمن أيضاً بتحديد النسل.

ـ ربما لا.

ظهرت في صوت نيال خشونة مفاجئة. فنظرت إليه وصدمتها المرارة التي قرأتها على وجهه. تلهفت إلى معرفة سبب ذلك، لكنها لم تجد سبيلاً للاستفهام وهيلين تقف هناك وتستمع إليهما. وجاهدت لتركز على عملها.

ـ من المحتمل إذن أن يعود سبب مرض تيريزا إلى نقص العناية الطبية الصحيحة أثناء ولادتها طفلها.

ـ هذا أكثر من مجرد احتمال، إنه أساس المسألة. ولعل أجزاء من المشيمة بقيت في رحمها، فتسببت بعدوى. فكل الدلائل تشير إلى ذلك، من النزيف إلى الألم فالحرارة، وهي محظوظة إن لم تصب بتسمم في الدم

أيضاً. علينا أن نجري لها فحص دم شامل. لكن المهم، الآن، هو أن نرى ما يحدث داخلها.

تركهما لتغسلا، هي وهيلين، أيديهما. وعادت سارا لتساعده، محاولة تركيز ذهنها على ما يحدث. وستفكر، فيما بعد، في أسباب ما ارتسم على ملامحه، وذلك عندما تنفرد بنفسها... كانت واثقة من أمر وحيد، وهو أنه لن يرحب بهذا الاهتمام!

* * *

ـ اشربي جرعة من هذا فقط، يا تيريزا... هذا حسن. عندما يبدأ مفعول المضاد الحيوي، ستشعرين بتحسن أكبر. لقد نظّف الدكتور جيلسبي الرحم، ولكنك لا زلت تعانين من الالتهابات التي يجب القضاء عليها.

ـ شكراً. لقد أزعجتكم جميعاً، أليس كذلك؟

وابتسمت تيريزا بوهن. فلاحظت سارا أنها جميلة رغم شحوبها البالغ. كان وجهها أكثر تجعداً مما يفترض به أن يكون في مثل سنّها. لكن لم يكن من السهل أن تنجب ستة أطفال وترعاهم.

فقالت لها مشجعة:

ـ لم تكوني مزعجة أبداً، فلا تكوني سخيفة. كل ما نريده هو شفاؤك وبعدها تستطيعين العودة إلى بيتك وأسرتك.

لكن تيريزا أشاحت بوجهها وأجابت: «أتمنى ألاّ أعود».

وكبتت المرأة شهقة باكية، وأضافت:

ـ لا أدري إذا كنت أستطيع احتمال المزيد! فليس لدي لحظة أقضيها مع نفسي، وعليّ أن أهتم بالطهي والغسيل وحمام الأطفال.

ـ ومن يود أن يعتني بستة أولاد؟

ومسحت تيريزا عينيها بظاهر يدها وتابعت تقول:

ـ لا، ليس هناك سوى والدة «لي». وهي مشغولة برعاية أسرتها.

وترى أنّ عليّ أن أهتم بأسرتي وأكفّ عن التذمر.

فأجابتها سارا:

ـ ولكن لا بد أن هذا صعب. فستة أطفال، عائلة كبيرة.

وأضافت وهي تتساءل كيف تقولب اقتراحها بلباقة:

ـ ربما عليك أن تفكري في طريقة نهائية لتحديد النسل، إذا كنت لا تريدين زيادة عدد أولادك.

ضحكت تيريزا بمرارة، وقالت:

ـ لا أظن أن «لي» سيوافق على هذا. فبحسب رأيه، كما زاد عدد أطفاله كلما برهن عن رجولة فائقة. لقد حذرني الطبيب من الحمل مرة أخرى بعد الطفل الخامس. لكن «لي» لم يهتم لذلك.

ـ ربما عليك إذن أن تتخذي القرار بنفسك، فهو جسدك أنت وحياتك. ولا يمكنك ترك القرار، بهذا الشأن، لشخص آخر. لا سيما وأنه لا يهتم بمصلحتك فعلياً.

وتركت للمرأة لحظة تستوعب فيها كلامها، ثم ابتسمت لها وغادرت الغرفة قبل أن تقول ما لا ينبغي لها أن تقوله. كان من الصعب عليها أن تصدّق بأن هناك امرأة تسمح بأن يهيمن زوجها عليها بهذا الشكل، في هذا العصر.

ـ أريد أن أكلمك، يا سارا، إذا سمحت.

وقفت، وخفق قلبها بسرعة عندما ظهر نيال فجأة. تقدمها إلى باب المكتب دون أن ينتظر موافقتها. ثم تنحى جانباً لتدخل أمامه. أغلق الباب ثم وقف مستنداً إليه وأخذ يتأملها بإمعان، وشعرت سارا بأن هناك ما يزعجه فتسارعت دقات قلبها.

هل تغيّر شعوره فجأة حيال تلك الليلة؟

ـ أريد أن أتحدث معك عما جرى في بيتي.

أكدّت كلماته ظنها فشعرت للحظة بدوار خفيف. وعندما تكلمت، جاء صوتها لاهثاً بعض الشيء. قالت برقة:

ـ ماذا عنه، يا نيال؟

ـ حول ما قلته وانجرافي وراء مشاعري.

ومرر أصابعه في شعره بفروغ صبر وأضاف:

ـ لا بد أنك تعلمين ما أريد قوله، يا سارا.

وفهمت. كما فهمت أيضاً ما رأته على وجهه منذ قليل... مشهد المرارة تلك وتأنيب الضمير. وشعرت برغبة في الضحك، إنما لتغطي الألم الذي اعتصر فؤادها عندما أدركت مدى ندمه...

ـ لا تقلق، يا نيال. فأنا واثقة من أنك لم تقصد ما قلته. إذا كان هذا ما يقلقك! وأرى أن تطرد من ذهنك كل ما قلناه في تلك الليلة.

وضحكت بمرارة، وقد فاق ألمها ما يمكن وصفه وأضافت: «كل شخص يمرّ بحالة ضعف... حتى أنت!».

ثم سارت متمهلة نحو الباب. وتردد نيال للحظة، فتساءلت عما إذا كان لديه شيء آخر يودّ قوله. لكنه تنحى جانباً أخيراً ليدعها تمرّ دون أن ينطق بكلمة. وغادرت المكتب بساقين ثقيلتين ثقل الرصاص، والألم والعذاب يدميان قلبها. لقد تلاشى أيّ أمل في أن يبدّل رأيه ويعود إليها.

لم تستطع مواجهة أي شخص في تلك اللحظة، لهذا توجهت إلى غرفة الجلوس الخالية في مثل هذا الوقت من النهار، فالأمهات يسترحن في أسرّتهن قبل بدء مواعيد الزيارة المسائية. سارت إلى النافذة وأخذت تنظر منها إلى المدينة، وهي تشعر بوحدة لم تشعر بمثلها من قبل، فقد أصبح الوضع فجأة واضحاً كالبلور.

لقد وهبت قلبها لرجل لا يريده. وهناك امرأة وحيدة يريدها نيال، امرأة واحدة فقط أرادها أن تحمل أولاده وتلك المرأة ليست هي.

* * *

١١ ـ الحب دائماً على حق!

ـ لن يبقى أحد هنا. أولاً الدكتور هندرسون، ثم إيرين، والآن أنت!

وصفقت سالي باب خزانتها بعنف وحملقت في سارا قائلة:

ـ ما ظننت قط أنك قد ترحلين.

ـ ولا أنا تخيّلت ذلك. لكنها فرصة سانحة وهي أحسن من أن أضيّعها.

وأغلقت سارا خزانتها ثم ابتسمت رغم العذاب الذي يثقل قلبها. لم يكن من السهل عليها أن تقرر الرحيل عن مستشفى «دالڤرستون» لكنه القرار الصائب الوحيد.

ـ قابلة خاصة؟

وقطبت سالي جبينها، وهي تضيف:

ـ إنها فكرة غريبة. لكني لا أظنها مختلفة عن أيّ عناية صحية خاصة أخرى.

ـ بالضبط، ولكن يبدو أنها ستكون ممتعة. فسأعمل في العيادة وفي البيوت أيضاً، وأنا أتطلع إلى ذلك بشوق. على أيّ حال، أتوقع أن تتغير الأمور هنا بعد بناء الملحق الجديد.

لكن سالي بقيت تنظر إليها بارتياب، وقالت:

ـ أظن ذلك. لكن الأمور لن تعود كما كانت.

خرجت سالي من غرفة الممرضات لتلحق بها سارا بعد لحظات. وتنهدت هذه الأخيرة، وهي تتوجه إلى المكتب لتستلم التقرير. ستتبدل الأمور فعلاً، وربما لن تكون أفضل. لكنها لا يمكن أن تصبح أسوأ، وهذا جلّ ما تريد تجنّبه.

فالعمل مع نيال أصبح لا يحتمل. ولا يتعلق الأمر بأنه راح يعاملها بتهذيب كما يعامل بقية الممرضات. ولكن ما جرى بينهما أعمق من أن يسمح بالعودة بسهولة إلى نقطة الانطلاق ليصبحا مجرد زميلي عمل. ربما استطاع نيال أن يمحو من ذهنه ما حدث بينهما، لكنها عجزت عن ذلك! وذكرى تلك الليلة، وأحاديثها وكلماتها، ما زالت هاجساً في عقلها وقلبها.

ـ حسناً، هذا كل شيء.

أنهت بريندا كارليل، الممرضة المسؤولة، تسليم سارا التقرير عن المرضى، وأطلعتها على ما ينبغي عليها مراقبته من حالات خاصة، وعمّا حدث أثناء النهار، ثم قالت:

ـ أرجو لك ليلة هادئة. بالمناسبة، سمعت أنك قدّمت استقالتك، وأنك ستغادرين إلى حيث أضواء المدينة.

فأجابت سارا عندما انتهت من تسجيل ملاحظاتها:

ـ هذا صحيح. سأرحل في آخر الشهر.

ـ هذا غريب. ظننتك ستستلمين مكان إيرين. لا بد أنك فزت بهذه الوظيفة في مسابقة.

فهزت سارا كتفيها، وقالت:

ـ ربما. لكنني شعرت بالحاجة إلى التغيير.

ـ حسناً. إذا كان هذا شعورك، فمن الأفضل أن تذهبي الآن بدلاً من أن ترحلي فيما بعد.

وغادرت «بريندا» المكتب بينما جلست سارا لتنظّم العمل. بعد رحيل إيرين وعدم تعيين بديلة لها، وقعت وظيفة الإشراف على الممرضات على عاتق سارا. وكانت الليلة هادئة، لحسن الحظ، إذ لم تسجل سوى حالة واحدة، بعد انتهاء مواعيد الزيارات.

تأكدت من إقفال الأبواب الخارجية بعد خروج آخر زائر، قبل أن تعود إلى القسم. وقد حرصت الإدارة على إبقاء الأبواب مقفلة بعد خروج الزائرين وذلك لأسباب أمنية. يدق المرضى الجدد الجرس ليدخلوا إلى المستشفى كما لم يسجل القسم أيّ حوادث من قبل، لهذا كانت الممرضات والأمهات يشعرن بالسرور والارتياح، إذ يدركن أن المبنى آمن.

وبعد أن اطمأنت إلى حسن سير الأمور، توجهت نحو غرفة التوليد حيث كانت هيلين وسالي تساعدان في حالة ولادة. سألتهما بهدوء:

ـ هل كل شيء على ما يرام هنا؟

ـ بأحسن حال. السيدة دايفيز تتوقع حضور زوجها بعد أن يستلم الرسالة التي تركتها له. إنه في اجتماع كنسي.

فطمأنت سارا المرأة:

ـ سأنتبه للجرس.

ثم غادرت الغرفة، وقامت بجولة سريعة على الأقسام كلها، متوقفة أحياناً لتتبادل الحديث مع بعض الأمهات. كان البعض منهن يشاهد التلفزيون في غرفة الجلوس، لكن معظمهن اختار الاستلقاء في الأسرة للقراءة أو لتبادل الأحاديث. لم يكن هناك قانون صارم يتعلق بإطفاء الأنوار، لكن الغالبية كانت تفضل الخلود إلى النوم عند الساعة العاشرة.

إن الولادة عملية مرهقة، وتعتبر معظم النساء فترة وجودهن في المستشفى فرصة للراحة، قبل أن يعدن إلى بيوتهن وحياتهن التي غالباً ما

تكون محمومة قلقة.

عادت سارا إلى المكتب، لتنهي بعض الأعمال المكتبية التي تراكمت أثناء النهار. وعندما دخلت لاحظت أن الباب مغلق، ودهشت إذ وجدت النور مطفأ كذلك.

مدت يدها تتلمس الجدار بحثاً عن مفتاح الضوء، وشهقت بدهشة حين رأت رجلاً قرب خزانة المخدرات. مضت لحظة حاولت فيها أن تستوعب ما يجري. فهل أدخل شخص ما زوج السيدة دايفيز وأتى به إلى هنا؟ ولكن لماذا بقي في الظلام؟

وإذا به يستدير فجأة، فأجفلت عندما عرفته، وهتفت:

ـ غاري! ما الذي...؟

لكنها لم تكمل كلامها إذ اندفع نحوها. ولم تجد فرصة لتبتعد عن طريقه فدفعها بعنف، وارتطم رأسها بحافة المكتب محدثاً صوتاً مثيراً للغثيان، ثم ساد الظلام.

***

كان النور يؤلم رأسها. فأشاحت سارا نظرها عن الضوء الساطع ثم تعالى أنينها حين تسببت لها الحركة بألم في رأسها يبعث على الغثيان. وشعرت بحركة خفيفة قربها، وبيد باردة تلمس خدها.

ـ سارا؟ هل تسمعينني، يا حبيبتي؟

عرفت صوت نيال، لكنها لم تفهم الكلمات التي قالها، فما هذا التحبب الرقيق؟ أغمضت عينيها لتجنب الألم الذي بدا أسوأ من ذلك الذي حاصر رأسها، وحاولت السيطرة على جموح مخيلتها. لم يكن نيال قربها! إنها مخيلتها وحسب التي تعبث بها...

ـ سارا، حدثيني.. قولي أي شيء. قولي لي أن أبتعد، ولكن قولي شيئاً يجعلني أعلم أنك بخير.

كان في صوته عذاب اضطرها إلى فتح عينيها بالرغم من ألمها الشديد. أدارت رأسها بحذر على الوسادة فشعرت بخفقات قلبها تتوقف وهي ترى نيال منحنياً فوقها... كان في عينيه من اللهفة، والتركيز و...

عضت على شفتها خائفة من أن تتسرب الكلمة الأخيرة إلى أفكارها فتثير فيها الألم.

وتمتمت بصوت أجش:

ـ ما... ماذا حدث؟

ـ ألا تتذكرين؟

عكس صوته اهتماماً أكبر، وقد فاضت عيناه بمشاعر جعلتها تصاب بدوار. عادت تغمض عينيها، خائفة من الصور التي يستعيدها ذهنها الأحمق، في حالته المشوشة هذه. فنيال لا يشعر نحوها بما تشعر به نحوه... وقد أعلن ذلك بوضوح!

قطبت حاجبيها وهي تحاول أن تستجمع أجزاءً من الصور الضبابية التي تزاحمت في رأسها، وأن تتذكر ما حدث... ظلام... النور المفاجيء، ثم شخص يندفع نحوها...

شهقت عندما ركبّت أخيراً الصورة:

ـ كان ذاك غاري! أنت تعرف من أعني، صديق تريشا. كان في المكتب فدفعني. ولكن... ولكن ماذا كان يفعل هناك؟

ـ وماذا تظنين؟

بدا صوته خشناً وهو يهب فجأة واقفاً. وانسدل فجأة على وجهه نقاب ضبابي، مخفياً الدفء والمشاعر التي رأتها في تلك اللحظات. جاهدت سارا كي تسيطر على شعورها بالخسارة. كانت تعلم أن مخيلتها تعبث بها، ولكن ما زال ذلك يؤلمها.

ـ كان يريد المخدرات، طبعاً. لا بد أنه اكتشف مكانها عندما جاء

ليزور تريشا. إذا كنت تذكرين، كانت أريبل تُحقن بالڤاليوم، حينذاك. وأظن أن غاري سمع أحدهم يذكر ذلك، فلمعت في ذهنه فكرة سرقته من هنا. هنالك سوق واسعة للڤاليوم في الشوارع.

ـ مخدرات...؟

أخذت تكرر ذلك ببلادة. ونظرت إليه مذهولة، ثم شهقت وهي تتذكر فجأة أمراً آخر.

ـ لقد فاجأت تريشا في المكتب باكراً صباح يوم خروجها من المستشفى. أتظنها كانت تفحص الخزانة لترى ما يمكنها أن تجد فيها؟

ـ ربما. أتصور أن غاري دفعها إلى القيام بهذا العمل، تعلمين كيف كانت خاضعة له. ولكن هذا ليس عذراً.

كانت لهجة نيال عنيدة صلبة وهو يضيف:

ـ سأتصل بالشرطة وأعلمهم بالأمر. أتصور أنهم سيرغبون في التحدّث إليها.

فسألته مجفلة وهو يحاول ترتيب الوسائد التي استلقت عليها:

ـ كنت تعلم إذن أنه غاري، أليس كذلك؟

ـ إبقي مستلقية، ولا تتحركي. لقد تعرضت لضربة قوية على رأسك.

وجلس على حافة سريرها، محاولاً جهده كي لا يهزه. أخذ يتأمل وجهها الشاحب للحظة، مطيلاً النظر إلى الرضة الضخمة على صدغها الأيسر وقد كسا ملامحه الغضب:

ـ ليتني أستطيع الإمساك بذلك القذر...

ـ ربما من الأفضل ألا تستطيع.

وتمكنّت من أن تضحك، رغم نبضات قلبها المتسارعة بجنون، مما زاد من ألم رأسها. هل الغضب الذي يشعر به نيال هو بسبب إصابتها؟

هل يعني هذا أنه يشعر نحوها بشيء ما؟ أخذت تفكر في ذلك محاولة السيطرة على النشوة التي شعرت بها.

ـ ربما.

كانت لهجته ساخرة وهو يأخذ يدها بين يديه برفق. ولم يبد عليه أنه لاحظ الرجفة التي سرت في كيانها حين لمس أصابعها وهو شارد الذهن.

ـ على أيّ حال، لن يحدث ذلك، فقد ألقت الشرطة القبض على غاري.

ـ ها... هذا عمل سريع.

وتساءلت إن كان نيال سينسب ارتجاف صوتها إلى ما حدث معها، لكنها لاحظت النظرة التي وجهها إليها. ترك يدها فجأة ثم هبّ واقفاً، وهو يقول:

ـ علينا أن نشكر مايك داوسن. فحين لم يفلح غاري في الخروج من الباب المؤدي إلى الشارع، حاول الهرب عن طريق المبنى الرئيسي. وصادف أن رآه مايك خارجاً من القسم فحاول إيقافه.

وهز نيال كتفيه، متجنباً بحذر عينيها وهو يبتعد عن السرير ويضيف:

ـ يبدو أنهما تعاركا لبعض الوقت، لكن مايك هزمه أخيراً.

فقالت:

ـ هذا من... حسن الحظ.

وأغمضت عينيها حتى لا يرى الألم الذي اعتصرها حين ابتعد عنها بهذا الشكل، وهمست بلهجة مفككة، غير قادرة على احتمال المزيد من هذا العذاب في حالتها الراهنة:

ـ أظن... أنه عليّ أن أرتاح، إذا لم يكن لديك مانع، يا نيال.

ـ طبعاً. آسف. لم أكن أعني أن...

وصمت... ثم سار إلى الباب، ووقف ويده على المقبض. كان في صوته خشونة بالغة جعلتها تفتح عينيها حين قال:

ـ إذا احتجت لأي شيء، فأعلميني، أرجوك يا سارا. أتعديني بذلك؟

لم تستطع احتمال سخرية القدر. فالأمر الوحيد الذي تحتاجه هو ما لا يمكنها الحصول عليه... أي هو نفسه! ولم تجبه، وعندما خرج، أغمضت عينيها مجدداً. إن الألم الجسدي الذي تشعر به لا يقارن بالألم الذي تملكها في داخلها. إنها تحب نيال من كل قلبها وستحبه إلى الأبد.

***

ـ أنا بخير، صدقيني. اسمعي يا لورا. إنني أقدّر عرضك هذا حقاً، لكنني لا أحتاج لأي رعاية.

وجاهدت سارا لتضفي على صوتها نبرة مرحة عندما راحت صديقتها تحتج على الفور.

وتابعت تقول:

ـ لا، لا..؟ لديك ما يكفيك من العمل دون أن تأتي إلى هنا لتعتني بي. لقد قالت إيرين إنها ستأتي لتزورني في ما بعد، ولهذا لن أكون وحدي.

كان ذلك تحريفاً للحقيقة. فقد اتصلت بها إيرين وعرضت عليها أن تزورها لكن سارا لم تقبل بذلك، كما لم تقبل بزيارة لورا لها. وتنهدت وهي تنهي المخابرة أخيراً. كان الجميع لطفاء للغاية معها، وعرضوا عليها المجيء للعناية بها. ولكن جلّ ما كانت تريده هو أن تبقى وحدها.

كانت قد أمضت اليومين الماضيين في المستشفى، وحاولت أن تتظاهر بالشجاعة، لكنها لا تريد الآن سوى البقاء وحدها. لم يكن الحادث وما نتج عنه من ارتجاج خفيف في الدماغ، سبب انزعاجها بل تحطم قلبها هو

ما آلمها أكثر. فهذا الألم لن تشفى منه كلياً.. ولكن عليها، بشكل ما، أن تواجهه وتتابع حياتها.

لم يحبها نيال، لكن العالم لم ينته لمجرد أنه أوضح لها ذلك، وإن كانت تشعر أحياناً بأنه انتهى فعلاً.

لم يأت لرؤيتها مرة أخرى أثناء وجودها في القسم ولم يدهشها ذلك. فقد قام بواجبه حين زارها وانتهى الأمر عند هذا الحد. أتراه علم بأنها قدمت استقالتها؟ وأخذت تتساءل عن هذا فجأة. وأوشكت أن تضحك بصوت عالٍ. ولماذا يهتم بها؟ فهي، برحيلها، ترتاح وتريحه هو أيضاً. فنيال لا يريد ما يذكّره دائماً بتلك الزلة التي اقترفها، كما أنها لا تريد ما يذكرها دائماً بمدى ندمه على ذلك.

جالت في أنحاء المنزل شاعرة بالكدر، وحاولت العثور على ما يصرف ذهنها عن تلك الأفكار الحزينة. لقد ألحّت عليها «إيلين روبرتس»، مديرة المستشفى، كي تأخذ إجازة مرضية بقية الأسبوع، مما جعل الأيام الممتدة أمامها خالية حزينة. كانت متلهفة إلى الانفراد بنفسها ولكنها، عندما أصبحت وحيدة، شعرت بأن الفراغ يدفعها إلى البكاء.

وفي محاولة لملء الفراغ، قررت الشروع في فرز ما تريد حمله معها إلى لندن. ستحتاج إلى استئجار شاحنة صغيرة لنقل أثاثها. لكن هناك التحف والأواني الصينية والأشياء الأخرى التي جمعتها خلال السنوات القليلة الماضية. كل هذا يجب فرزه والتخلص من التافه منه. لكن، وبعد نصف ساعة، شعرت بالتململ والضجر من البقاء محبوسة في بيتها.

كان الطقس قد تغيّر، وهب نسيم بارد من فوق التلال فانخفضت درجات الحرارة. ارتدت سترة سميكة، ثم خرجت في نزهة على الأقدام، آملة أن يخفف ذلك من ضجرها. سارت من جديد نحو النهر ووقفت على الضفة تنظر إلى المياه المتدافعة عند قدميها. ولم تدرك أنها تبكي حتى

شعرت بتبلل خديها. عندما ستترك المستشفى سينتهي كل شيء، لن ترى نيال مرة أخرى. كيف ستتمكن من احتمال ذلك؟

ـ لا تبكي، يا حبيبتي!

قطع صوته أفكارها التعيسة وجعلها تستدير بسرعة، أوشكت معها على الانزلاق إلى النهر، إلاّ أن نيال مدّ يديه ليمسك بها، ثم ضمها إلى صدره وأبقاها هناك حتى شعرت بخفقات قلبه الثقيلة تحت راحتيها.

ـ يبدو لي أنك بحاجة إلى من يعتني بك، أيتها الممرضة هاريس.

حاول أن يجعل نبرة صوته مرحة، لكنه فشل في ذلك، وأحست سارا بتوتر كل عصب في جسمها.

ـ هل... هل هذا عرض منك، يا دكتور جيلسبي؟

ضحك ضحكة عميقة، رقيقة وحنونة بحيث أنعشت كيانها.

ـ نعم، إنه كذلك! ويبدو لي أنني قمت بذلك منذ زمن طويل.

ـ نيال!

وغاب اسمه في خضم المشاعر الجياشة حين انحنى وضمها إليه فتعلقت به، وأحست بحرارة جسده تحت يديها.

ملأت البهجة قلبها إلى حد شعرت معه بأنه يكاد ينفجر.

تعانقا بحرارة، وشوق، ورقة. وابتسمت عندما رفع رأسه وفي عينيه الذهول نفسه المرتسم في عينيها:

ـ أحبك يا سارا! وقد كنت أكبر مغفّل حين لم أدرك ذلك من قبل، لكنني أحبك!

ـ وأنا أحبك، يا نيال.

وجذبت إليها رأسه لتحدق في عينيه الخضراوين العاصفتين، كي يدرك أنها تعني كل حرف قالته:

ـ أحبك أكثر مما يمكن لأي شخص أن يحب.

ـ يا حبيبتي.

ضمها إليه بشدة ليبدي لها مدى شوقه إليها. وتنبّها إلى ما يدور حولهما، حين تناهت إلى سمعهما أصوات الأولاد الذين كانوا يصيحون ويلعبون ويضحكون بالقرب منهم.

تركها نيال من بين يديه وهو ينظر إلى ملعب الأولاد شزراً:

ـ همم... يبدو أن هذا المكان يعجّ بالناس. هل منزلك بعيد، يا سارا؟

ـ آه، إنه قريب جداً.

وابتسمت له ابتسامة عريضة، وهي تدس يدها في يده ليستديرا عائدين. دارا حول الملعب، ثم توقف نيال وقد ظهرت على ملامحه كآبة خفيفة وهو ينظر إلى الأطفال.

قال لها بهدوء:

ـ ربما ذات يوم، يا سارا، سيلعب ابننا هنا.

وكان هذا كل ما تاقت إليه نفسها. أحلى وعد في الحياة، عربون الالتزام الكامل. مدت يديها نحوه وقبّلته على وجنته، وشعرت بقلبها يمتلىء حباً وحناناً وهي تقول:

ـ هذا محتمل أكثر منه مستحيلاً، يا حبيبي.

عادا إلى بيتها يداً بيد. وأغلقت سارا الباب خلفهما، ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه. ضمها بلهفة أكبر من قبل، وكانت مشاعرها تماثل مشاعره قوة. فهو نورها، دفئها، حياتها... وسبب وجودها.

***

أمسك بوجهها بين يديه وأخذ يحدّق في عينيها بحب عارم شعرت إزاءه بغصة في حلقها.

ـ أحبك، يا سارا.. أحبك أكثر مما أحببت أي امرأة أخرى.

همست وهي ترتجف، لا تكاد تصدق ما يقوله:

ـ حتى... حتى أليسون؟

فعانقها متمهلاً، وأجاب:

ـ نعم، حتى أليسون. لقد نشأنا أنا وأليسون معاً. وما كنت أشعر به نحوها مختلف تماماً. لقد أحببتها فعلاً لكنني لم أكن مغرماً بها. لم أشعر معها قط بمثل ما أشعر به معك الآن...

وضمها بين ذراعيها مجدداً، فخدّر أحاسيسها، وصرف ذهنها عن أيّ شيء آخر، باستثناء حبهما الجديد المتكامل. هذا الحب الذي سيدوم إلى الأبد.

فكل ما أرادته في حياتها، وكل ما حلمت به جسّده نيال وحبه.

لم يحاول إخفاء حب التملك لذا شعرت بقلبها ينتعش. وعانقها بشاعرية أكبر، مما جعلها تتأوه حين تركها.

ضحك للتعبير الذي بدا على وجهها وقبل قمة أنفها.

ـ ما رأيك بغرفة نوم مميزة فيها سرير ضخم؟

ـ أنا... أنت...

وتنفست بعمق وهي تسأله:

ـ هل هذا عرض زواج، يا دكتور جيلسبي.

ـ نعم.

ورفع حاجبه بغطرسة وأضاف:

ـ أظنني أعلم الجواب مسبقاً، لكن من المفروض أن أسمع منك الجواب بالقبول.

ـ لماذا، أنت... أيها المغرور.

وحاولت أن تقرصه في كتفه لكنها صرخت وهو يضمها إليه بشدة أوقفت أنفاسها:

ـ نعم أم لا؟ هيا، قرري الآن هل ستتزوجينني؟

ـ حسناً، إن كان هذا سيمنعك من التصرف كرجل الكهف...

وتنهدت بلهجة مسرحية وأضافت:

ـ أظن أنه عليّ أن أقول نعم.

ـ هذا حسن. وأعلمك أنه لم يكن لديّ النية لقول (لا) كجواب. كان في نيتي أن أقنعك سواء بالوسائل المشروعة أو غير المشروعة.

وسرت قشعريرة في جسمها وهي تتلمس للعاطفة التي حملها صوته، وقالت:

ـ هممم... جعلني قولك هذا أتمنى لو أني تمنّعت قليلاً.

ضحكت.

ـ آه، لا تقلقي، تستحقين الآن مكافأة لأنك لم تجعليني أنتظر. وأنت الرابحة من كافة النواحي، يا سارا.

وفجأة بدا في صوته تردد خفيف، فقالت له:

ـ إن خسارتي الوحيدة هي ألاّ تحبني يا نيال.

فرد معترفاً بهدوء:

ـ لكنني أحبك. لقد أغرمت بك منذ عهد طويل، منذ ذلك اليوم الذي عانقتك فيه قرب النهر. كنت... كنت فقط خائفاً من أن أواجه مشاعري لأنني كنت أشعر بالذنب حيالها.

ـ حيال أليسون؟

ـ نعم.

وتنهد وهو يجذبها نحوه ليضمها بين ذراعيه، وتابع يقول:

ـ بدا لي أنه ليس من العدل أن أحب وأسعد مرة أخرى وهي ميتة. شعرت بالذنب فلو لم أصطحب أليسون إلى أفريقيا وأجعلها تحمل طفلي، لبقيت حية حتى اليوم. لقد أقسمت على ألا أضع امرأة أخرى في مثل هذا

www.elromancia.com

الموقف، وعلى أن أبقى بعيداً عن أية علاقة شخصية، كي لا أجازف مجدداً.

فقالت وقد كرهت أن تسمع منه هذا الكلام:

ـ لكن الذنب لم يكن ذنبك يا نيال.

ورفعت رأسها تنظر إلى وجهه، وسرّها أن يتقبل قولها باسماً.

ـ إنني أدرك ذلك الآن. لكنني قبل أن أتعرف إليك لم أسمح لنفسي بأن أفكر في ذلك بتعقل. ولم يكن ذلك صعباً. فلم أكن بحاجة إلى القيام بذلك، حتى تعرفت إليك يا سارا. كنت قانعاً بالبقاء وحيداً بقية حياتي، فلا يرافقني سوى عملي. وأدركت مدى خطرك على توازني النفسي منذ رأيتك للمرة الأولى في غرفة المرضات. لكنني صممت على مقاومة مشاعري لأنني شعرت بالذنب.

ـ ظننتك ما زلت مغرماً باليسون ولا تحتمل التفكير في امرأة أخرى في حياتك.

عندما اعترفت بذلك بهدوء، رأته يجفل. وأجاب:

ـ لا. كل ما أخبرتك به صحيح... لقد أحببت اليسون. كانت دوماً جزءاً من حياتي، وكانت فتاة حلوة رقيقة. لكنني لم أحبها بقدر ما أحببتك يا سارا. لم أبتعد عنك لأنني لا أستطع أن أحبك بقدر ما أحببتها، ولكن لأنني أدركت كم يمكنني أن أحبك! وهذا ما جعلني أشعر بالذنب، ولهذا صممت على وضع حد لذلك.

فسألته باسمة:

ـ فهمت. لكن ما الذي جعلك تغير رأيك؟

ـ سمعت أنك قدمت استقالتك! فأدركت فجأة أنك ستخرجين من حياتي إلى الأبد وأنني لن أراك أبداً. وعدت إلى عقلي بعد إصابتك تلك، مما دفعني إلى بذل الجهد لأرى نتيجة تصرفاتي معك.

وضحك فبدا صبيانياً ووسيماً جذاباً، وتسارعت خفقات قلب سارا. قال:

ـ كان لدي اجتماع عمل بعد ظهر هذا اليوم، لكنني أرسلت اعتذاراً إلى مجلس الإدارة. وتحججت بأن لديّ أمراً هاماً مستعجلاً أقوم به، ثم جئت إلى هنا مباشرة. ولم أكن أكذب.

تحوّل ضحكها إلى آهة محمومة عندما ضمها إلى صدره. وأغمضت عينيها وقد جرت حمى المشاعر الجياشة في كيانها. نيال على صواب، فما من حاجة ماسة أكثر إلحاحاً من الحب!

***